أسامة إبراهيم

الحب
فى ميدان النهضة

مجموعة قصصية

الطبعة الأولى
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٥ م
جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشر: مركز النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

تصميم الغلاف: علاء قابيل
الإخراج الفنى: أحمد جابر

رقم الإيداع بدار الكتب: ٣٠٣٨/ ٢٠١٥
الترقيم الدولى: ٠-٦-٨٥٠٦٨-٩٧٧-٩٧٨

إلى السيدة التى لا أشعر بالأمان والسعادة

إلا بين يديها ..

إلى أمى القوية.. الطيبة التى حكت وتحكى

ليّ أشهر وأغرب الروايات

المحتويات

الصفحة

الحب فى ميدان النهضة ٧

سهرة فى قصر أميرة الخيال ١٣

النوم مع العدو ١٧

امرأة بألف رجل ٢١

جريمة شرف فى دوار العمدة ٢٩

المطرب المغمور واستغفال الجمهور ٤٥

أيوب..بالمقلوب..... ٥٣

حفلة تكريم العالم الكبير ٥٩

القتيلة الحسناء وقارئ الكهرباء ٦٣

دور شطرنج مع ميت ٧٣

رحلة البحث عن البيت المفقود ٨٣

لعنة الرجل المحظوظ ٩٥

في ليلة عاصفة من ليالي القاهرة، تسلل الشاب «سميح مهران» محاولا العودة إلى غرفته بأحد البيوت القديمة في حي «بين السرايات» المقابل لجامعة القاهرة.

كان الجو مقبضا وخانقا، وآثار الغبار والأتربة ودخان القنابل المسيلة للدموع تحوم في سماء المدينة المرهقة بالمظاهرات والاعتصامات والصدامات، ودوي الطلقات النارية يسمع من كل اتجاه...

ولكن قبل أن أكمل ما جرى في تلك الليلة الدامية، أحكي لكم جانبا من حياة سميح:

إنه شاب من عائلة صعيدية متوسطة الحال، درس سنتين في قسم الفلسفة بجامعة أسيوط، ولكن عقله المضطرب أصلا، تاه بين أقوال الفلاسفة ونظرياتهم حول الإنسان والكون والمدينة الفاضلة.

رسب سميح في الكلية سنتين متواصلتين، فازدادت حالته النفسية والعقلية سوءا، واعتقد البعض أن الفلسفة لحست عقله وسوف تؤدي به إلى الجنون.

عند هذا الحد، همس بعض الناصحين في أذن أبيه بأن يرسله إلى القاهرة ليكمل دراسته في كلية دار العلوم، قائلين له إن تغيير الجو والبيئة سيؤدي إلى تحسن صحته.

* * *

حط سميح رحاله في القاهرة قبيل أسابيع من نشوب ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١. فجذبت الأحداث المتلاحقة عقله المهووس أصلا، وانغمس في الثورة حتى النخاع وشارك في كل مظاهراتها واعتصاماتها وصداماتها.

لكن مشاهد القتل والدماء والدمار التي تخللت الثورة وما تلاها من أحداث وتحولات صدمته وجعلته يشمئز من السياسية ومن المجتمع بل من الحياة بكاملها فاعتكف في غرفته، وازداد وحدة وعزلة وانطواء عن العالم..

وفيما كان على هذه الحالة، إذا بحلم يؤثر في نفسه تأثيراً بالغا.. إنه وجه فتاة رائعة الحسن سيطر على أحلامه، ولازم أفكاره نهارا وليلا، فأصبح عاشقاً لهذه الفتاة التي تأتيه في أحلامه دون أن يهتدي إليها سبيلا.

* * *

هذه كانت حالة سميح وهدان النفسية قبل تلك الليلة.

ولنعد إلى ما بدأنا به:

كان عائداً إلى غرفته مساء الأربعاء ١٤ أغسطس ٢٠١٢، وهي ليلة فض اعتصامي رابعة العدوية وميدان نهضة مصر أمام جامعة القاهرة..

ولأن قوات الجيش والشرطة أغلقت محيط ميدان النهضة في ذلك اليوم ومنها منطقة بين السرايات، فقد سلك سميح بحذر وتوجس بعض الحارات الجانبية للوصول إلى غرفته، بينما كان صوت الرصاص والقنابل يدوي من حوله.

كان سميح يسير بمحازاة سور حديقة الأورمان القريب من ميدان (نهضة مصر)، حيث تمكنت قوات الأمن في صباح ذلك اليوم من تفريق

المعتصمين.. بعدها عكف الجنود وعمال البلدية على إزالة آثار الاعتصام وإعادة الميدان إلى سابق عهده.

* * *

وبينما سميح يحاول المرور وسط الركام والدخان، إذا به ينكمش من الذعر حين شاهد آثار دماء وأشلاء بشرية على الأرض. فهم بالعودة وهو يرتعب من تلك المناظر... لكن فجأة لمح جسد فتاة أمام إحدى بوابات حديقة الأورمان منكفئة إلى الأمام ووجهها مخبأ بين قدميها.

توقف سميح مذهولا... لقد بدا له أنها فتاة مسكينة أجبرتها الأحداث الجسيمة التي جرت هذا اليوم على أن تلجأ لهذا المكان كسيرة القلب لا تدري أين تذهب.

اقترب منها وكلمها بلهجة حانية، فرفعت رأسها ونظرت إليه بعينين شاردتين. وعندما أمعن النظر إليها وشاهد وجهها انتفض جسده بشدة.. إنه نفس الوجه الذي لازمه في أحلامه.. كان شاحباً حزيناً، ولكن جماله يسلب العقل.

كلمها سميح ثانية وهو يرتجف وقد سيطرت عليه عواطف جياشة، وعرض عليها أن يوصلها إلى بيتها. فقالت بصوت مخيف: (معدش ليه بيت في الدنيا دي، بيتي في المدافن).

لم ينتبه سميح لكلماتها فقال لها بعطف وصدق: أرجو ألا تفهميني غلط، تفضلي إلى غرفتي المتواضعة للمبيت واعتبريني أخا مخلصاً. ثم أخذ بيدها وسارا باتجاه حي بين السرايات حتى وصلا إلى البيت المتهالك الذي يسكن فيه.

وعند دخوله إلى غرفته شعر بالخجل من ضيقها والإهمال في كل مكان. وكانت مكدسة بكل ما يملك من كتب وأوراق منثورة هنا وهناك، بينما انتصب سرير متهالك في زاوية من الغرفة.

أنار مصباح الغرفة الباهت فشاهد الفتاة عن قرب ووضوح لأول مرة، فانتشى أكثر بجمالها الأخاذ وحسنها الباهر رغم شحوب وجهها وكأن الدماء هربت منه.

* * *

بدأت الآن حيرة سميح: كيف يتصرف مع فتاته التي غدت تحت حمايته؟

فكر في أن يترك غرفته لها، ويبحث لنفسه عن مأوى في مكان آخر.. ولكنه ظل مفتوناً بحسنها حتى ظن أن هناك سحراً سيطر على مشاعره يمنعه من مفارقتها.

بينما كان سميح تحت سلطان فتنتها باح لها بحبه. وأخبرها بقصة حلمه الغامض وكيف انها ملكت حياته قبل أن يراها. فتأثرت الفتاة بحكايته واعترفت بأنها تبادله نفس الأحاسيس.

قال لها بحماس: لن نفترق بعد اليوم، فروحنا واحدة وسنكون لبعضنا كل شيئ. ثم قال لها: أعاهدك أن أكون لك للأبد.

قالت الفتاة بوقار كئيب: إلى الأبد؟!

كرر سميح: نعم.. إلى الأبد!

ارتمت على صدره وراحا سويا في ثبات عميق.

في صباح اليوم التالي ترك سميح الفتاة نائمة، وخرج يسعى لايجاد سكن ملائم له ولفتاته. .. وعندما رجع إلى الغرفة وجدها نائمة على وجهها فكلمها ولكن لم ترد.

تقدم ليوقظها... لكن عندما مسك يدها كانت باردة ـ لم يكن فيها أي نبض ـ وكان وجهها شاحباً مصفراً، بمعنى أصح كانت جثة هامدة.

هرول سميح بهلع وفزع يستنجد بسكان البيت. فتجمع الناس داخل الغرفة وأمامها.

عندما حضرت الشرطة، دخل الضابط إلى الغرفة ليستطلع الأمر فأخذته الدهشة عندما رأى الجثة،

صرخ بذهول: غير معقول! إزاي البنت دي جت هنا؟

فسأله سميح بلهفة: إنت تعرفها؟

رد الضابط: أعرفها؟ دي كانت من بين قتلى امبارح، وأنا نقلتها بنفسي إلى المشرحة.

تقدم سميح في ذهول نحو الفتاة ونظر في وجهها فوجد أثار طلقة نارية في رأسها، فسقط مغشيا عليه وفارق الحياة خلال دقائق معدودة.

أما الضابط فقد أصيب بانهيار عصبي حاد وما زال يتلقى علاجه حتى الآن.

سهرة في قصر أميرة الخيال

منذ طفولته المبكرة، كان دائم الإلحاح على والده ليذهب بصحبته إلى حارة بعينها في القرية.

يبتسم الوالد مندهشا من رغبة ابنه الغريبة في الذهاب إلى هذه الحارة بالذات، لكنه مع ذلك كان يصطحبه إليها.

يمشي الولد صامتا متأملا ما حوله في شرود، تنتابه سعادة داخلية لا يعرف أسبابها ولا مصدرها.

عندما كبر قليلا، اعتاد على المشي في تلك الحارة بمفرده، حتى أن أصدقائه ومعارفه كانوا يجدونه هناك إذا افتقدوه.

في ليلة شتوية، كان يسير متأملا كعادته في الحارة، وإذا به يفاجأ بسيل من المطر المنهمر، فقرر مغادرة الحارة والعودة إلى منزله.

في أثناء عودته، تملكته الدهشة عندما وجد نفسه أمام قصر تحيطه حديقة خلابة ومناظر بديعة لم ير لها مثيلا في حياته. ومن شدة دهشته لم ينتبه إلى أن القصر ظهر مكان بيت قديم من بيوت القرية.

* * *

يااه.. طول عمري وأنا أحلم بدخول هذا القصر ورؤية من تسكنه.

قالها مذهولا لنفسه ثم دفع باب القصر برفق، وعندما دخل سمع أصوات زقزقة عصافير كأنها ترحب بقدومه.

نادى في ذهول: من هنا؟

لم يجد إجابة إلا صدى صوته... فأطلق نداء ثانيا، وثالثا، دون جدوى.

رغم الصمت المطبق، إلا أنه اتخذ قراره وتعمق داخل القصر وتجول بين ردهاته إلى أن قادته قدماه إلى غرفة ينبعث منها ضوء خافت فطرق بابها..

فتحت له امرأة ملائكية كأنها ست الحسن والجمال، فوقف مسحورا أمامها وامسك بيديها وقبلهما فابتسمت له ابتسامة كلها حب ودلال وحنان.

قال لها: وجدتك أخيرا يا أميرة الخيال.

قالت له والابتسامة الساحرة ما تزال على شفتيها: أنا أيضا أنتظرك طوال عمري.

قضيا سويا وقتا كأنه حلم أو خيال... لم يعرف كيف مضى الوقت ولا ماذا حصل، اللهم إلا باقة من الورد أعطتها له وهو يغادر القصر.

* * *

عاد الشاب إلى بيته ومكث في غرفته سويعات قليلة هائما حالما حتى أشرق نور الصباح وهو شغوف بلقاء أميرته من جديد..

خرج متوجها إلى ذات المكان... لكن لم يكن هناك قصر. بل وجد نفسه أمام المنزل القديم الذي اعتاد على رؤيته منذ طفولته أثناء سيره في الحارة.

اتجه إلى حلاق مجاور للبيت واستفسر منه عن القصر؟

ـ قصر في قريتنا؟!

رد الرجل الطيب ضاحكا وهو يضرب كفا بكف، وأضاف: منذ عشرين سنة وأنا اعمل هنا وكل شيء على حاله.

* * *

لكن... هناك ثلاثة شهود أكدوا أن ذلك الشاب- الذي فقد عقله لاحقا- لم يكن ضحية حلم أو هلوسة:

فأثناء عودته إلى بيته بعد أن غادر القصر، لمحه أحد أصدقاءه من بعيد وهو يمسك باقة الورد ويسير في الشارع.

وعندما اقترب من بيته، قال له أحد جيرانه مازحا: من أين حصلت على هذه الزهور في هذا الوقت؟

والزهور.. لقد أعطى واحدة منها لكل من في بيته، وكانوا خمسة من عائلته، قالوا أنهم لم يروا زهورا بهذا الجمال!

* * *

كيف حصل ما حدث إذن؟ لم يستطيع أحد أن يعرف الإجابة حتى الآن، وما زال الشاب يهيم على وجه باحثا عن الأميرة والقصر....

النوم مع العدو..

كان الرجل وزوجته يجلسان صامتين وكأن على رؤوسهما الطير يشاهدان على شاشة التلفزيون تدشين مشروع قناة السويس الجديدة بحضور رئيس الجمهورية، وقد بدا الرجل متأثرا بما يحدث وقال لزوجته باشمئزاز: بيضحكوا على عقول الناس، لكن البلد تسير من سيء لأسوأ وسوف ترى أياما أكثر سوادا..

قالت زوجته: البلد حالتها وحشة فعلا...

بعدها نظرت باتجاه شباك الشقة وهي تنتفض وبدأ خوفها يتزايد.. وكانت لديها أسبابها التي تجعلها حريصة على عدم إظهار مشاعرها في أي أمر يخالف رأيه مهما كان، خوفا من أن تتدهور حالته ويدخل في إحدى نوباته الهيستيرية.

فكرت في أن تغير الموضوع، فتوجهت إلى طفلها الصغير الذي كان جالسا في ركن الصالة، يمسك ذراع بلاى استيشن يدير معركة إلكترونية تشارك فيها غواصات وطائرات وصواريخ ويبدو عليه الإنفعال الشديد، وأبدت له الأم ملاحظة أن صوت الحرب عاليا ومزعجا وربما يضايق والده، وكان الولد لطيفا وطيعا على غير العادة، فاتجه فورا إلى حجرته لاستكمال حربه التي كان منغمسا فيها.

عندما عادت إلى زوجها وجدته ساهما، وقد أقفل اللاب توب أمامه ويبدو أنه على وشك الانفجار.

لم يكن ينظر إليها أو إلى أي شيء- (كانت عيناه تحدقان في السقف أغلب الوقت)...

راح يفكر في مأساة الانسان المصري هذه الأيام، ورآه مكبلا بالهموم والآلام والمتاعب.. يستقيظ في الصباح متعبا، ولكن واجبات الحياة تفرض عليه القيام من الفراش، والذهاب إلى الحمام، وحلق لحيته التي قد لا تكون نابته بقدر كاف، ثم يلبس قميصه وبنطلونه ويمشط شعره ويفكر فيما سيواجهه في عمله من منغصات ومقالب وآسافين، بعدها يعود آخر النهار، ولم يعمل شيئا يذكر.

قال: لم تعد الحياة محتملة، وأظن أنني لا أستطيع العيش في بلد الناس تأكل بعضها ولا أحد يحترم القيم والمبادئ ولا المواهب.

ولأن زوجته كانت تتفهم حالته النفسية جيدا، وقرات كثيرا في المواقع الإلكترونية التي تقدم النصح لمن يعاشرون مرضى النوبات الهستيرية.. والأهم من ذلك أنه لم يكن خيار أمامها سوى المحافظة على أسرتها وبيتها، فقررت أن توافقه على كل ما يقول، بل وتضيف من عندها كلمات لتؤكد موافقتها، لذلك جعدت ما بين حاجبيها حتى تبدو جادة وقالت بحماس: لكل ظالم نهاية.

ورغم ما بذلته من جهد مضني لإرضاءه، لكنها توقعت أن يحدث شيء ما في هذا الجو المكهرب..

مشى زوجها بضع خطوات إلى الكنبة وتمدد عليها، ثم أخذ يتململ بضيق وقرف، وعندما سمع صوت رنين الموبايل هب منتفضا وعلى وجهه علامات الغضب والإثارة، وقال لها:

- هذا الموبايل مصيبة تضاف لكل المصايب التي تقع على رؤوسنا.. لماذا اخترع الانسان هذا الجهاز الملعون؟

فقالت الزوجة على الفور: الموبايل ده مصيبة فعلا.

وعند هذا الحد، أدرك الرجل لعبة زوجته التي اعتبرها بشعة وحقيرة ولا يستطيع احتمالها.. ورأى أن كل هدفها أن تظل أسرتها قائمة، وتبذل كل ما في وسعها حتى تجعلها شيئا قائما ومستمرا حتى لا يطردها من البيت كما هددها أكثر من مرة.

ورغم أنه كان متعبا ومنهكا ويشعر باشمئزاز من زوجته ومن الدنيا بأسرها، لكنه شعر فجأة برغبته في النوم معها.. وبالفعل قام وجذبها من يدها ودخل بها غرفة النوم وضاجعها بدون أي مقدمات، ثم تركها ملقاة على السرير، وعاد وفتح اللاب توب وقضى بقية الليل في كتابة تعليقات على الفيسبوك وتويتر تلعن هذه الأيام التي لا تطاق.

حين عرفت أن ابنها خطب إحدى بنات القاهرة دون أن يخبرها أو يستشيرها أصابها الهم والحزن، وحطم رأسها الصداع، وأصبحت عيناها مبللتين بالدموع طوال الوقت..

* * *

لم لا وهي شغوفة بولدها وحيدها، زوجت ابنتيها بأسرع ما يمكن حتى تتفرغ لتربيته، ورفضت تأجير الفدان الذي تركه المرحوم زوجها، وزرعته بنفسها حتى توفر له الأموال التي تمكنه من إتمام تعليمه، فكانت تقوم بمهام يعجز عنها أشد الرجال..

تصحو منذ مطلع الفجر وتتأخر في الحقل ليال طويلة ترعى أرضها، بينما بقية نساء القرية ينعمن بالدفء في الفراش أو بين أحضان أزواجهن.

لم تشعر أبدا بمهانة أو مذلة أو حتى بخجل رغم أنها في مجتمع صعيدي نادرا ما تخرج فيه النساء للعمل بالحقول..

إيمانها بما تقوم به من جهد جعلها تثق أنها تقدم شيئا عاديا، بل كثيرا ما كانت- وهي في ريعان شبابها- تشمر عن ساعديها وهي في الحقل وتربط جلبابها حول وسطها فيظهر فخذاها ولا ترى في ذلك عيبا، ولم يحدث مرة أن طلبت مساعدة أحد، تحرث الفدان بنفسها، وترويه بنفسها، وتزرعه بنفسها، وتحصده بنفسها.

منذ أن مات زوجها أحست بأن عمله انتقل إليها، فقررت أن تأخذ مكانه دون تردد، وانغمست في العمل، تعرق، وتبرد، وترتعد، ويؤلمها ظهرها، وتتورم قدماها وكفاها، لكنها لا تئن، فهي تتحمل كل شيء مثل أعتى الرجال وأكثر.

* * *

بمجرد أن انتهى «رفعت» من تعليمه الجامعي سعى للحصول على وظيفة بالقاهرة، وظلت كما هي في بلدتها راضية عن حالها، فطوال السنوات التي قضاها ابنها في المدارس والجامعة، لم تشعر للحظة أنها تكافح أو تبذل هذا الجهد حتى يعود عليها بنفع ما. بل كانت تفعل ما تفعل دون أن يخطر على بالها أنه سوف يعولها أو يرعاها بعد أن ينتهي من دراسته ويحصل على وظيفة.

* * *

هذه الأم التي لم يهتز لها جفن طوال عشر سنوات منذ مات زوجها، انفعلت حين سمعت أن ابنها خطب دون أن يستشيرها أو حتى يدعوها لحضور الخطوبة..

بكت، أحست بضعفها، وبزغت أمامها السنين الطويلة التي قضتها تزرع وتقلع، وكانت خلال تذكرها ترتعد وتعرق، وتحس بألم في يدها وظهرها كأن كل شقاء السنين حل عليها الآن.

وعندما زارها «رأفت» كعادته بداية كل شهر للحصول على معونتها، قابلته لأول مرة بالبكاء وأظهرت أمامه ضعفها بل وقعت مريضة عندما رأته.

أخبرها ببرود أنه خطب فتاة جميلة ومن أسرة محترمة ومؤدبة ومتعلمة، فكانت تنظر إليه ولا تسمع.. وظلت تنتحب وتتوجع بطريقة جعلته يشعر بأن موقفها مجرد عناد..

قال في نفسه إنها جاهلة، وثار في وجهها وتركها وسافر إلى حيث وظيفته وخطيبته ومستقبله.

* * *

مرضت الأم، أهملت زرعها ولم تعد تراعيه، وباتت تفكر في الأيام الطويلة التي أمضتها في الحقل، وزوجها الذي غادر الدنيا مبكرا تاركا لها ثلاثة أبناء بدون أي دخل.

وبعد أن يتعبها الفكر، كانت تسأل نفسها عما إذا كان يصح بعد كل هذا أن يتزوج بدون أن يخبرها..

لقد كانت تتوق إلى اليوم الذي يأتيها فيه ابنها ليسألها النصح في زواجه، وتتصور نفسها تذهب وترى الفتاة، وتشرب القهوة ثم تتفق مع أهلها على الجهاز والمهر، وتشتري له كل شيء بنفسها... لكنه الآن ذهب وخطب وارتبط وكأن لا وجود لها...

أليست هي أمه وأبوه منذ سنين طويلة؟ كيف يفعل هذا؟.. وتظل تسأل نفسها حتى تدمع عيناها وتنام والحزن يعتصر قلبها.

ازداد مرض الأم، وأصبحت تشعر بثقل في جسدها، وإرهاق مستمر، وشيئ يضغط فوق صدرها، وكأنها مشرفة على الموت.

كانت تخشى اللحظة التي تسمع فيها أن زواج ابنها تم، وكل شيء انتهى، وتمنت أن تموت قبل أن تأتي هذه اللحظة.

* * *

وفي صبيحة أحد الأيام، جاءها زميل ابنها وأخبرها أن أهل خطيبته رفضوه بعد أن اكتشفوا أنه فقير لا يملك المهر أو ثمن شقة أو جهاز.

كان الوقت نهارا، والأم تجلس على عتبة دارها.. زمجرت وشدت على أسنانها وقالت بغيظ: رفضوا أن يزوجوا رفعت؟ أنا زرعت وحصدت وسهرت لأجعله رجلا، وفي النهاية يقولون إنه فقير، ويرفضوه... يرفضوه...؟

عندما ذهبت لتنام، بدت لها الدنيا ضيقة كعنق زجاجة، وتصورت ولدها في القاهرة وحيدا، محسورا، يعيش في ذلة، ونامت بعد سهاد طويل ثم قامت مذعورة، وجلست متكورة، ثم قررت أمرا.

أعدت نفسها للسفر، فباعت كل ما تملكه من بهائم، واتجهت كالمجنونة ناحية محطة البندر، وبعد مشقة السير والسؤال وصلت القاهرة، بإحدى

يديها ثمن البهائم، واليد الأخرى تحمل ورقة مهلهلة بها عنوان ابنها، ووصلت إلى مسكنه.

فوجئ رأفت بأمه وهو يفتح لها، وقبل أن يسألها كيف جاءت ولماذا، سألته هي عن حقيقة ما تم، ولماذ رفضوا أن يزوجوه؟ فأكد لها ما أخبرها به صديقه، فطلبت منه بصوت حاسم أن يرتدي ملابسه ويذهب بها إلى منزل خطيبته، فتردد لكنها نهرته وصرخت فيه أن يفعل، فأطاعها وهو يشعر أن أمه أصابها جنون، ودخلا منزل الخطيبة.

قالت الأم قبل أن تجلس في الصالون: أنا أم رأفت.

- أهلا وسهلا.

سكتت برهة ثم قالت: والده متوفي.

قال رجل أشيب منحني الظهر: البركة في حضرتك.

ابتسمت الأم بطريقة من يثق في نفسه: أنا جايه أطلب إيد بنتكم لولدي، معايا المهر، وابني مخلص دراسته ومتوظف وعنده فدان أرض وله دار واسعة.

وبلعت ريقها ونظرت حولها وسألت: إيه رأيك يافندي؟

تلخبط الرجل الأشيب أمام قوة شخصيتها، ونطق حرفين ثم سكت وخرج، ودخلت بعده سيدة سلمت ورحبت وجلست.

قالت الأم مكملة حديثها: أنا مستعدية لكل حاجة.

ردت السيدة: يا ألف مرحبا، بس رأفت كان بيقول إنه مش مستعد دلوقتي، وده السبب...

قاطعتها الأم: لا مستعد.. المهر جاهز.. تلاتين ألف جنيه.

لم تجب السيدة، ولم تحاول الأم أن تحصل منها على إجابة، كانت تثق أن كل شيء سيتم كما تريد، وأحضرت طفلة القهوة، ورشقتها الأم بقسوة، وقالت بينما تضع الفنجان: الفاتحة...

وقرأت الفاتحة دون أن تنظر لأحد، وحين انتهت همت واقفة وألقت على ترابيزة صغيرة المبلغ الذي تحمله، وقالت: أدي المهر، وابني قد الدنيا، مبسوط، بس هوه اللي مكانش عارف يتكلم.

نطقت الجملة الأخيرة بقوة وثقة واتجهت ناحية الباب، وهنا قالت السيدة: طيب اتفضلي شوية عشان تشوفي...

- مش مهم، ولدي شافها وعاجباه، هو إللي يختار، بس أنا إللي أجوزه وأوفر كل طلباته... وخرجت ورأفت خلفها تملأه الدهشة، يحس بشيء من الخوف والرهبة، لم يتكلم منذ دخل معها حتى خرج، ظل يتأمل أمه بإعجاب واحترام طوال جلسته.

ووصلا مسكن رأفت.

تعمدت الأم ألا تنظر إلى ابنها، لأنه تعلم أنه لن يتمكن من رفع عينيه عن الأرض.. وبنفس الصوت الحاسم ظلت تكلمه عن زواجه وتلقي عليه النصائح.. وبعد فترة قامت قائلة بأنها لا بد أن تسافر، وحاول رأفت أن يبقيها للصباح وأخبرها أنه سيأخذها لزيارة أولياء الله الصالحين لكنها رفضت. وحين هم بالخروج معها طلبت منه بحسم أن يبقى، فهي تعرف الطريق، ووقف رأفت مذهولا، أراد أن يتكلم لكن نظرة من أمه، قوية، نافذة، جعلته يبقي لسانه في فمه، وخرجت وحدها.

نزلت الأم من القطار في محطة البندر، ووصلت إلى قريتها، وفي صبيحة اليوم التالي أسرعت إلى الأرض، شمرت عن ساعديها وعن فخذيها، وضربت في الأرض بفأس كبيرة، هوت بها مرة ثم مرات، وأحست فجأة بطعم القهوة التي شربتها في بيت خطيبة ابنها، فلعقت شفتيها بلسانها، وضربت الأرض بقوة أكثر، بقوة لا يملكها ألف رجل.

في ذلك اليوم، انقلب مزاج العمدة عامر رأسا على عقب وجن جنونه، ازداد جسده الأسمر نحولا، وأسود وجهه وارتعش جسمه، وأبيض شعر ذقنه بين يوم وليلة.

مشى مهرولا إلى النجع الغربي وهو يرتدي جلبابا شاحب السواد غير مهندم، لكنه لم يعبأ بذلك وكان باله مشغولا عن كل ما حوله، وعند مروره بالقرب من دكان الحاج عطية استقبله الرجل بالتهليل والترحاب:

- أهلا ومرحبا بعمدة العرب.

رد عامر في صوت خفيض ودون أن يتوقف: أهلا.

ناداه عطية في لهجة مرحة وهو يفتح باب الدكان: وحشنا كلامك الحلو.. من كذا يوم لم نضحك.

تجاوز عامر الدكان بعدة خطوات، وأصبح ظهره للرجل عندما رفع يده وتمتم في اقتضاب: بعدين يا حاج.

وقف عطية برهة فوق عتبة دكانه ينظر إلى خيال عامر وهو يبتعد، ثم اتجه إلى الداخل وهو يقول لنفسه في دهشة: هو ماله ياترى؟

بمجرد ظهور العمدة عامر في مدخل السويقة الواسعة التي تتوسط النجع، صاح عدد من الملتفين حول الشيخ رشوان عمدة النجع: ينصر دين النبي، العمدة عامر وصل..

حتى الشيخ رشوان نفسه، خرج عن وقاره وأطلق ضحكة وهو يشير إلى عامر بأن يشاركهم جلستهم، لكن عامر رفع يده التي لامست عمامته الكبيرة وقال دون أن يتوقف عن سيره: السلام عليكم.

التفتوا جميعا إليه بما فيهم الشيخ رشوان وصاحوا في مرح: وعليكم السلام، تعالى ياعمدة... لكنه استمر في سيره متجها إلى الدرب الذي يبدأ من طرف السويقة الجنوبي، وقال دون أن يلتفت إليهم وهو يبتعد عنهم: معلهش، مرة تانيه.. بعدين...

وغابت الابتسامة ونظر بعضهم إلى بعض في دهشة شديدة، وقال أحدهم: ماله؟

فرد عليه آخر بتساؤل: حكايته إيه؟

وضرب الشيخ رشوان كفا بكف.

* * *

في الطرف الآخر من النجع، تخطى عامر عدة بيوت، واتجه إلى بيت طلي بالخارج بالجير وكتب عليه بخط بدائي: (حج مبرور وذنب مغفور.. منزل الحاج توفيق العماري)

وعندما اقترب من البيت وثب عليه كلب داكن اللون كان يرقد فوق العتبة ونبح بشدة في أول الأمر، ثم صمت وهدأ وراح يهز ذيله ويتمسح بالعمدة عامر الذي ضرب على الباب بشدة عدة ضربات... وقبل أن يرد أحد دفع الباب بيده ودخل، منزل واسع تتوسط فنائه عدة نخلات، وفي طرفه ثلاث

حجرات، خرجت من إحداها بنت صغير حلوة التقاطيع، وما إن رأته حتى صاحت في فرح: خالي جه.

فسألها وهو يتناول يدها الممدودة: أمك فين؟

أجابت البنت وهي تجرى إلى إحدى الحجرات: إلحقي يا أمي، خالي هنا.

ظهرت من الحجرة امرأة في حوالي الأربعين، سمراء البشرة، تغطي رأسها بخمار أسود، وعندما رأته ابتسمت وقالت مرحبة في مرح: أهلا بعمدة العرب.

صافحها عامر دون أن ينظر إليها قائلا: أهلا ياحاجة... ثم اتجه إلى مصطبة بأحد أركان الفناء بينما تعلقت الصغيرة بثوبه في فرح، وجلس وهو يتنهد بينما اقتربت منه أخته وقد تلاشت ابتسامتها، وأطلت من نظراتها تساؤلات تبحث عن أجوبة، جلست تحت رجليه على الأرض واستندت بكوعها على طرف المصطبة التي يجلس عليها، وقالت وملامحها تتساؤل معها: مالك ياخويا؟

قال وهو يتنهد: البت.

برقت عيناها وعقدت ما بين حاجبيها وقالت وهي تمد عنقها: نوره؟

هز وجهه بالإيجاب ثم أسند رأسه بين يديه واتجه بنظره إلى الأرض.. فتساءلت المرأة وهي تحدق فيه بدهشة: مالها؟

قال دون أن يرفع نظراته من الأرض: طلقوها؟

ضربت أخته صدرها بيدها بقوة، واصطبغ صوتها بنبرة فزعة: ياهوي.. كيف وهي لم تكمل شهر جواز؟

حرك عامر شفتيه دون أن ينطق، ثم رفع رأسه وردد بصره بين أخته وابنتها، فنظرت المرأة إلى الصغيرة وقالت لها: اجري إلعبي بره مع العيال

تشبثت الصبية بجلباب خالها وهو تقول لأمها في صوت مخنوق: عايزه ألعب مع خالي.

نهضت المرأة من مكانها وغابت قليلا، ثم عادت وفي يدها ٣ جنيهات ومدت يدها لابنتها قائلة: اشتري حاجات حلوه من الدكان اللي جنب البيت.

تناولت البنت الجنيهات في احتجاج ووضعتها في جيبها وخرجت، فعادت المرأة إلى مجلسها وقالت: طلقوها ليه ياخويا؟

قال عامر بصوت مبحوح: السبب في علم الغيب.

- البت مقالتلكش حصل إيه؟

- جوزها جابها البيت عشية بالليل.. وقال لي ياعمدة عامر إنتم بيت أصول، لكن بنتك لم تحفظ نفسها وبيتها هي طالقه بالتلاته واسألها عن السبب...

- وسألتها؟

- من ساعة ماجت وهي تبكي طول الليل من غير أي كلمة، وعندما ضغطتنا عليها قالت...

وصمت العمدة عامر، بينما مدت المرأة عنقها في تحفز وكأن جسدها كله قد تحول إلى آذان صاغية.. وقال عامر وهو يقلب يديه: أقول إيه... لا حول ولا قوة إلا بالله.

لم يطرق لأخته جفن، راحت تحدق فيه محبوسة الأنفاس، فقال عامر وقد تهدج صوته: قالت انه يتهمها بأنه شاده رجلا يخرج من بيتها.

صاحت المرأة في فزع، وضربت بيديها على رأسها: يالهوي يالهوي ياخراب بيوتنا.

وظلت تندب لفترة ليست بالقصيرة وعامر مطرق برأسه إلى الأرض، ثم سألته: معرفتش مين الرجل؟

- قال لها انه ابن شيخ النجع حسنين؟

- إياك الواد العايق عادل إللي اتعلم في مصر؟

- أيوه

قالت المرأة بعد فترة صمت: وناوي تعمل ايه ياخويا؟

- أعمل إيه، لا إله إلا الله محمد رسول الله.

- بس محدش يصدق الكلام ده على بتنا

- انا مش مصدق.. لكن.. وكلام الناس؟

فكرت المرأة قليلا ثم قالت: والناس تعرف منين؟

نظر إليها عامر في دهشة وقال: والطلاق؟

نكست المرأة رأسها إلى الأرض، ثم قالت فجأة كمن تذكرت شيئا: وابنك كامل سمع بالكلام ده؟

- سمع...

- قال إيه؟

- قال نقتل البت

ضربت المرأة صدرها صائحة: يقتلها؟

لم يرد عامر فتساءلت أخته: يقتلها من غير ما يعرف حصل إيه بالظبط؟

- قال إن قتلها هو الحل الوحيد لمنع كلام الناس

- لكن بتنا متعملش الشين أبدا

- هو قال إنه ممكن تكون بريئة، لكن ده لا يمنع العار...

- كيف؟

- هو اتفق مع أولاد عمه يرموها في النيل ثم يبحثون عنها كأنها غرقت. فقلت له طول بالك ياولدي، اختك ممكن تكون بريئة، قال لي معك مهلة يوم واحد.

- متسمعش كلام الولد، بتنا بريئة.

- قال لي إما أن أقتلها أو أسيب النجع ومرجعش تاني.

قالت المرأة وهي تضرب كفا بكف: دي لعنا صابتنا، نروح من كلام الناس فين؟

في هذه اللحظة، فتح باب البيت ودخلت البنت الصغيرة تمسك في يدها قطع حلوى تأكل إحداها ووضعت الباقي في حجر خالها ثم جلست بجانبه على المصطبة وأمسكت بيده وراحت تنظر إليه في سعادة، وقالت: خالي، احكي لي حكاية التعلب إللي ضحك على البقرة واكل ابنها.

وضع عامر يدها على كتفها وضمها إليه وقال: بكره يا هنا.

قالت البنت في إصرار وهي تتشبث به: احكيهالي دلوقتي.

صاحت في المرأة بضيق: انزلي نزلت عليكي داهيه، يقطع البنات وخلفتها.

انكمشت الفتاة في حضن خالها، وقالت له أمها: ايه رأيك ابعت اجيب ابن عمك؟

- ياريت ضروري.

قالت المرأة لابنتها: إجري هنا، قولي لأبوكي يسيب كل شيء وييجي على طول.

قامت البنت محتجة وهي تمسك بجلباب خالها أكتر فربت على كتفها وقال: روحي يابنتي. فتركته وتعبيرات وجهها تدل على الضيق وخيبة الأمل، ثم فتحت الباب وخرجت...

جلس الحاج حسب الله على المصطبة بجوار ابن عمه العمدة عامر، بينما جلست المرأة على الأرض منكسة رأسها، وغير بعيد جلست البنت تنظر إلى المتهامسين بحزن شديد ونظرها معلق بوجه أبيها، وكانت ملامحه صارمة ويتحدث بعصبية وانفعال وقال في صوت أجش: النار ولا العار يا ابن العم.. الناس مش هيسيبونا في حالنا.

رفعت المرأة يديها وقالت فيما يشبه الرجاء: يعني مكانش ممكن يؤجل الطلاق؟

التفت إليها حسب الله وقال في حزم: يؤجله ليه يعني، الرجل ما تعره مرته، ولكن تعره أخته أو بنت عمه أو واحده من عيلته.

ثم التفت إلى العمدة عامر وقال: اسمع.. مفيش مفر تموت البت، ويموت معاها كمان الواد عادل ابن الشيخ حسنين.

نظر إليه عامر وقال في إعياء: وعيلته؟

- نقتله ونقتل أي حد يتصدر من عيلته.

أسند عامر رأسه بيديه وقال: وتخرب البلد؟

قال الحاج في إصرار وهو يلوح بيديه: تخرب.. تخرب.

ثم ما لبث أن التقت ناحية البنت الصغيرة وكأنه تذكر شيئا، ثم قال بصوت منخفض: على العموم الكلام ده سابق لأوانه، المهم نثبت براءة بتنا الأول.

رفع عامر رأسه وحدق فيه، ثم قال كالمستنجد: وكيف نثبت براءتها يا ابن العم؟

خلع الحاج حسب الله عمامته الكبيرة، وقذفها أمامه بعصبية وهو يتمتم: هي دي المشكلة، كيف نثبت براءتها؟.. ثم فكر قليلا وقال: سألت نسيبك كيف شاف الراجل يخرج من عندها؟

- لا، هو مقليش أي شيء أبدا.

قال الحاج: إكفي على الخبر ماجور لغاية مانكلمه.

* * *

- «كانت ساعة مغربية، وكنت جاي من السوق، ولما قربت من بيتي شفت باب الدوار مفتوح، ومن عادتي أمر على الدوار قبل مادخل البيت اقول في نفسي ممكن يكون فيه ضيف أو حد عايزنا في حاجة... وأول ماهميت أدخل الدور شفت الواد عادل ابن حسنين طالع من دوارنا، ولما شافني جرى بعيد عني بسرعة شديدة فوقفت دقايق في مكاني وأنا مدهوش، بعدها بصيت من باب الدوار فرأيت الباب التاني ناحية البيت مفتوح، فالفار لعب في عبي ودخلت البيت من الدوار، لقيت زوجتي في مكان قريب من الباب سألتها: «مين اللي كان عندك من شويه؟ فتلجلجت في الكلام ومردتش، فاخدتها على بيت أبوها، ده كل اللي حصل ومفيش داعي لأي كلام تاني».

بعد أن انتهى الشاب من روايته ساد صمت عميق، العمدة عامر يضع رأسه بين يديه وبصره إلى الأرض، وأصابع الحاج حسب الله تعبث بشاربه، ووالد

الشاب يردد بصره بين الحضور والجميع صامت... وقطع الحاج حسب الله الصمت موجها كلامه للشاب: وكيف عرفت انه ابن الشيخ حسنين؟

- أنا اعرفه كويس، كمان الدنيا كانت لسه مغربيه.

- لما اتكلمت مع مرتك، قالتلك ايه بالظبط؟

- تلجلجت في الكلام، ثم بكت، وقال لي عايزه أروح عند أهلي.

- مفكرتش إن ابن حسنين يكون دخل البيت بقصد السرقة؟

أشار الشاب إلى ما حوله وقال: الدوار مفيهوش غير الدكك والكنب.

- أقصد يسرق البيت؟

- صعب دي تتصدق، فالولد غير محتاج للسرقة.

- إنت شكيت في مرتك قبل كده، أو حد قالك عنها شيء؟

- لا...

مرت فترة صمت أخرى، قال الحاج حسب الله للشاب: مين عرف باللي حصل؟

أشار الشاب إلى أبيه وقال: مفيش غير أبويا وأمي.

التفت حسب الله إلى والد الشاب وقال: إيش رأيك ياشيخ علي؟

حرك الرجل رأسه وقال فيما يشبه الحشرجة: مقدرش أقول غير لا حول ولا قوة إلا بالله...

وقف الحاج حسب الله ووقفوا جميعا لوقوفه وقال وهو يخطو خارج الدوار يتبعه العمدة عامر، ووجه كلامه للشاب ووالده قائلا: إللي حصل ده مفيش جنس مخلوق وإلا....

خرج الرجلان يشقان جحافل الظلام، وعند نهاية الطريق الزراعي قال حسب الله: ياعمدة عامر.. النار ولا العار.. كمان مش هنسيب ابن الشيخ حسنين.

لم يرد عامر، وإنما ترك العنان لدموعه الغزيرة وهو يسير لوحده في الظلام.

* * *

غرفة مستطيلة هي دوار العمدة عامر، جلس ثلاثة شبان على حصيرة مفروشة على الأرض، وقد تقاربت رؤسهم من بعضهم حتى كادت أن تتلامس، وهم يمسكون شوالا كبيرا وبجانبه كمية من الحبال.

أحد الشبان هو ابن (العمدة عامر)، والآخر ابن الحاج حسنين، والثالث مصطفى ابن عمهما.

كان مصطفى هو الوحيد الذي أنهى دراسته الجامعة بين أبناء عمومته، وأقلهم حماسة لتنفيذ ما اتفقوا عليه من قتل بنت عمه، بينما العمدة عامر جلس على دكه وقد أسند رأسه بين يديه، وجلس الحاج حسب الله على دكه أخرى يراقب الشباب الثلاثة... ورفع مصطفى رأسه وهو يخاطب حسب الله:

– والله العظيم أنا متأكد ان بت عمي بريئة واللي يستحق الموت هو زوجها الحمار.

فقال له الحاج: إيه اللي مخليك متأكد من براءتها؟

قال الشاب بحماس: بكاها المستمر أكبر دليل، وأنا مستعد أتجوزها.

صمت الجميع، ورفع عامر رأسه ونظر إلى مصطفى في انكسار، وقد أمسك نفسه عن البكاء، لكن ابنه شوح بيده وقال في حدة: مستحيل، الناس هتقول ان ابن عمها اتجوزها ليستر العار.

فقال عامر في صوت ضعيف يخاطب ابنه: وماله ياولدي؟

نظر الابن إلى ابيه في استغراب وقال بتعجب: عتقول وماله يابوي، متعرفش معنى الكلام ده، هو ده العار بعينه...

تدخل حسب الله وقال يخاطب الابن: الحق معاك ياولدي، لكن متنساش ان محدش عرف شيء بالموضوع غير نسيبك وأبوه وأمه.

فقال الشاب في سخرية: دول بس، متعرفش ياحاج إن أمه نشرت الخبر في كل حته والناس كلها بقت تتكلم عننا؟

قال عامر لابنه في رجاء: ياولدي، الله يرضى عليك، طول بالك، وخلي الموضوع ده لبكره...

فرد الشاب في حدة وعصبية: مش ممكن، أنا حلفت، إما أن أمسح العار أو أسيب البلد ومرجعش تاني أبدا.

ثم وقف وقال يخاطب أباه وينظر في الوقت نفسه إلى الحاج حسب الله: عايز كلمه واحده: ايوه أو لع؟

فأشار حسب الله إلى الشاب يطلب منه الجلوس والتفت إلى عامر وقال له: ياعمده، احنا قدام حاجتين، إما الولد وإما البت، والبت طبعا سهله، تروح في داهيه، لكن الولد ميتعوضش. وألا أنا غلطان في الكلام ده؟

توقف الجميع عن الكلام بينما عاد العمدة عامر يضع رأسه بين يديه والحزن الشديد يكسو وجهه.

* * *

وبينما الجميع على هذا الحال، سمعوا فجأة ضجيجا في الخارج، فالتفتوا إلى باب الدوار ما عدا العمدة عامر ظل على حاله، وما هي إلا لحظات حتى سمعوا من يطرق عليهم باب الدوار، فنظروا جميعا إلى بعضهم لحظات، وقام ابن الحاج حسب الله ثم تقدم نحو الباب وفتحه، فرأى أمامه الشيخ حسنين بقامته الطويلة وعبائته السوداء وعمامته البيضاء وقد وضع فوق كتفيه شالا من الصوف وترك بعضه يتدلى فوق ظهره شأن كبار زعماء العائلات.

أفسح الشاب الطريق للشيخ حسنين، فدخل يتبعه عشرة رجال من أبناء عائلته بين شيخ وشاب، ووقف الجميع لهم،، فجلس حسنين على دكه، فنظر حسب الله إلى ابن العمده عامر وقال له: القهوه...

فرفع حسنين يده معترضا وقال: دقيقه واحده.

فصمت الجميع وقال حسنين: قبل القهوة لينا كلمة، اسمعوها... بعدها إما نشرب القهوة ونفضل زي ماحنا أهل وأحباب، أو أعداء...

تسلطت الأنظار على الشيخ حسنين فقال بصوت قوي: وصلنا الكلام إللي وصلكم، وجينا لغاية عندكم عشان نقولكم ان ابننا برئي من اللي بيتقال، وقتها كان معدي جنب دوار نسيبكم ولقى بابه مفتوح، وكان سمع ان الدوار مفروش بعفش جديد فحب يبص عليه عشان يجيب زيه، ولما دخل الدوار وجد باب البيت مفتوح، ولأنه ولد طايش فبص ناحية الباب التاني فشاف بنتكم واقفه بلبس البيت فخاف ومشي على بره بسرعه، ولما خرج اتفاجأ بنسيبكم جاي ناحية الدوار فمعرفش يقوله إيه فسابه وجري بعيد... ده كل اللي حصل زي ماقاله ابني، مفيش أكتر من كده ولا أقل».

انتهى الشيخ حسنين من كلامه وصمت الجميع، وقلب الرجل نظراته بينهم حتى يعرف تأثير كلامه عليهم فرأى وجوها جامدة أشبه بالصخر... الوحيد الذي هدأت ملامحه هو العمده عامر، لكنه كان ينظر إلى ابنه مرة وإلى الشيخ حسب الله مرة... أما مصطفى فلمعت عيناه لمعانا غريبا، وقطع حسنين الصمت بقوله:

- يا أبناء العم، عيلتنا وعيلتكم مع بعض من عشرات السنين، أجدادنا وأجدادكم عاشوا أخوة وحبايب، واحنا عايزين المحبة والاحترام تفضل بينا، وأي حكم يرضيكم احنا مستعدين له، لو عايزين اجيب ابني لغاية هنا اجيبه لكم، تعملو فيه إللي انتو عايزينه، حتى لو قتلتوه مش هنطلب تاره، لكن قبل كده لي عندكم رجاء... ثم صمت قليلا ومد يده نحو عامر:

- بنت العمده لابني، على سنة الله ورسوله، قلتو ايه؟

في هذه اللحظة هدأت ملامح الجميع، وانفرجت الأسارير، ورفع الحاج حسب الله يده ووضعها فوق عمامته وقال:

- قبلناكم يا ولاد العم، البت بتنا والولد ولدنا، وانت مننا وعلينا، و...

وهنا مد مصطفى يده وقاطع الحاج قائلا: كلمة ياحاج الله يخليك. فصمت الحاج وقال له: اتفضل ياولدي.

فوقف مصطفى مخاطبا الشيخ حسنين ومن معه: قبلناكم، لكن بت عمي لي، أنا أولى بها.

فنظر حسب الله إلى حسنين وقال له وهو يبتسم: طبعا بعد إذنكم يا شيخ العرب.

فرد الحاج حسنين: كان أملي أجدد عهد الأجداد بالنسب، لكن مصطفى أولى، الفاتحة بالصفاء والنور.

وارتفعت الأكف تقرأ الفاتحة، بينما الدموع تتساقط من عيني العمدة عامر، وهو يتلو الفاتحة. بعدها بدقائق انطلقت الزغاريد من بيته تعلن عن الزفاف.

المطرب المغمور واستغفال الجمهور

مرت الأيام الماضية وأنا أعيش في قلق وتوتر غير مسبوق في حياتي.. وصباح اليوم بالذات انتابتني مشاعر متضاربة ونوم متقطع وصداع مستمر يكاد يمزق رأسي.

اقتربت عقارب الساعة من الثالثة بعد منتصف الليل، لكن لم أستطع تحمل البقاء في الفراش رغم أنني لم أذق طعم النوم.. فقمت من السرير واتجهت إلى شباك الغرفة أتابع الشارع الذي يخلو في مثل هذا الوقت من المارة والسيارات، لكن لم أطق الوقوف سوى لدقائق قليلة.

لأول مرة في حياتي سأقف الليلة المقبلة أمام جماهير كثيرة، أذواقهم مختلفة، أمزجتهم متباينة، لا يعرفون عني شيئا- ولا يدرك أحد منهم ما بذلته من جهد وما سهرته من ليال، لأسمعهم شيئا من فني وأعرف حكمهم عليه.

مرت سنين طويلة وأنا أتمنى هذا اللقاء، أعيشه بكل كياني.. لكن نظرتي لهذا الحلم تغيرت بمرور الأيام، فبعد أن كان يقترن في ذهني بأمل العمر الذي أنتظر تحقيقه بشغف، أصبح يعني لدي الخوف من الفشل، وعدم الثقة في النجاح.

كل ذلك جعلني في الأسابيع الماضية أدرك أهمية لقائي الأول مع الجمهور، فمطلوب مني الليلة أن أرضيه واسعده، وانتزع منه الإعجاب والتصفيق وإلا ضاعت سنوات جهدى بلا فائدة، وتبدد حلم العمر.

قضيت تحت الدش وقتا أطول من المعتاد، ربما بسبب شرود ذهني، أو لشعوري بصعوبة مرور الساعات الباقية، ولم أكد أفرغ من الاستحمام حتى رن جرس الباب، ودخل صديقي مدحت حاملا عدة لفائف أدركت أنها الإفطار، قال ضاحكا:

- افتكرتك لسه نايم، كالعادة.

وقبل أن أرد عليه راح يصفر بفمه ويحرك رأسه يمينا وشمالا ويداه تنقر على ترابيزة تتوسط صالة الشقة، ثم جذب مقعدا وجلس عليه، وصمت فجأة وهو يستند بكوعيه على الترابيزة، ونظر إلي مبتسما وهو يقول:

- اطمن، كل شيء بقى تمام، وعندي مفاجأة مش هقولهالك طالما مكشر كده...

ضحكت بدون نفس. وقلت له: جهز الفطار الأول ياصديقي قبل ما تسد نفسي بمفاجآتك.

غادر مدحت الصالة قبل أن تصل إليه كلمتي الأخيرة، وسمعت داخل المطبخ صوت ارتطام الأواني وتدفق الماء من الصنبور مختلطا بصوت غنائه، هكذا هو دائما، دوشة طوال الوقت، لكنه صديقي الوحيد منذ أكثر من عشرة أعوام...

* * *

دخلنا المدرسة الثانوية معا، وكنا نناديه بالموسيقار، وهو يفخر بذلك رغم أن البعض كان يناديه بها على سبيل السخرية، ثم فوجئنا به يشارك في حفلات

الزفاف التي تقام بمدينتنا الصغيرة، وكان يجيد العزف عل أكثر من آلة، وهو ما جعل البعض يتنبا له بمستقبل فني.

توطدت صداقتي بمدحت، وكان يسمع صوتي أغني ونحن نسير يوميا نفس الطريق من المدرسة للبيت، وحاول عدة مرات أن يقنعني بالغناء في الحفلات، لكني كنت أرفض تماما، خوفا من أن أتعثر في دراستي كما حدث لمدحت الذي جعلته الموسيقى يهمل دراسته.

وعندما أعلنت إحدى الفضائيات عن إقامة مسابقة غنائية للهواة، أصر مدحت على أن أتقدم إليها، وبالفعل تقدمت وأذاعت الفضائية أغنية بأدائي لعبدالحليم حافظ. وأذيع البرنامج على الفضائية بعد بداية السنة الدراسية بأسابيع، وعندما ذهبت للمدرسة في اليوم التالي فوجئت بزملائي يستقبلونني بحفاوة وتشجيع، فبعث ذلك داخلي شيئا من الارتياح رغم معرفتي أن بعضهم يهرج أو يجامل.

عندما تكلمت مع مدحت في هذا الموضوع رد علي بحدة: لولا إنك عجبتهم كانوا نزلوا عليك تريقه، وأللا فاكر همه خايفين منك يعني؟

- هم معجبين بصاحب الأغنية الأصلي حليم.. أنت السبب.. لكنها أول وآخر مرة.

وقف مدحت بانفعاله المعهود وهو يصيح: دي فرصتك إنك تغني في الحفلات بأجر مرتفع.

قلت في هدوء: كل شيء بأوانه ياصديقي.

كنت وقتها في السنة الثالثة الثانوية، وعندما نجحت التحقت بمعهد الموسيقى، لكن حزنت لعدم نجاح مدحت، ثم عرفت أنه انقطع عن الدراسة مع بداية العام التالي، وحاولت أن أشجعه على إكمال دراسته لكنه اتفق على العمل بملهى ليلي في القاهرة جعله ينسى الدراسة تماما، فدعوت له من كل قلبي بالتوفيق، وفي البداية كنا نتكلم في الموبايل كل يوم تقريبا، ثم تباعدت مكالماتنا حتى انقطعت تماما.

* * *

انتبهت على صوت مدحت وهو يصيح أن الفطار جهز، وجلسنا متقابلين على الترابيزة واستمر يرغي وفمه ممتلئ بالطعام:

– أراهن إنك مرعوب من الليلادي، لكن اطمنك أنه خوف بدون داعي.

– مش خوف ولاحاجه ياصاحبي، ده مجرد احساس ممكن ييجي لأي حد تاني مكاني.

– عشان كده نصحتك واحنا في أسيوط انك تتعود على مواجهة الجماهير.

قلت في تأفف: كنت هغني إيه هناك، أيامها مكنتش أملك غير صوتي وده لوحده مش كفايه.

– يا أخي مكنتش حتخسر حاجه لو غنيت أي حاجه.

لم يكن عندي استعداد للاستمرار في مناقشته، لكني شعرت بالغضب نحوه، لماذا لا يفهمني مدحت وهو صديق العمر؟ لماذا أحس أحيانا أن طريقة تفكيرنا مختلفة؟

قلت له: ميهمنيش أغني أي حاجة، عايز أغني شيئ مختلف. ومش قادر أتخيل نفسي لو مشيت في الطريق اللي انت مشيت فيه، كنت هغرق في القاهره وزحامها، ومكنتش هقدر أكمل دراستي...

قبل أن أنتهي من كلمتي أدركت أن تلميحي ممكن يضايق صديقي بغير قصد، فنهضت مرتبكا وقلت له: آسف مدحت، أنا مرهق جدا.

قال ضاحكا: ياريت تريحني وتعتذر عن الحفلة، وأبقى أنا الملحن والمتعهد والمغني كمان.

شاركته الضحك ثم ضحكت أكتر عندما تخيلته وهو يغني بصوته الغليظ وحركته التي لا تهدأ على المسرح..

جمعت بقايا الفطار ثم قلت له في ود: خلينا مع بعض لغاية مانروح سوا المسرح.

- لا يافنان، لسه في ترتيبات لازم أخلصها عشان نجهز كل شيء لاستقبال مطربنا العظيم.

* * *

ارتميت على السرير أنشد بعض الراحة، فطوال الأسابيع الماضية كنت مشغولا بالبروفة ليل نهار، ووجدتني أفكر في مدحت، فأنا مدين له بالكثير، قابلته بالصدفة بعد أن انتهيت من مشاهدة حفل غنائي بالأوبرا منذ عدة شهور بعد فترة انقطاع استمرت عدة سنوات.

قلت له بعد أن تعانقنا: لو فكرت دقيقة واحدة في نسيانك لي كل السنين اللي فاتت مكنتش كلمتك خالص.

رد في نبرة أسف: ياريت تعذرني بعد ما جيت بنفسك القاهرة وشفت دوامة الحياة فيها.

قضينا الليلة سويا نسترجع ذكرياتنا، وعرف كل منا ما غاب عن حياة الآخر، فأخبرني أنه أصبح عازفا وملحنا وكمان متعهدا معروفا في الوسط الغنائي، وأخبرته أنني انتهيت من السنة الأخيرة من معهد الموسيقى.

- وناوي تعمل إيه بعد كده.

- عايز اتقدم للأوبرا أو التلفزيون أو أسافر بره.

- كل إللي بتقوله ممنوش فايده، وعلى كل متشغلش بالك، سيبني أتصرف.

في اليوم التالي اتفقنا على أن ينظم لي حفل غنائي على أحد المسارح، ورغم سروري بذلك إلا أن مدحت كان يخبرني كل يوم تقريبا بمفاجأة سارة كما يسميها، لكن مفاجأته كانت غير ذلك لي، وكان يلجأ إلى طرق غريبة تسبب لي صدمة أحيانا، فذات صباح وجدت صوري في ملصقات ببعض الشوارع وبجواري مطربة كبيرة لم يخبرني أنها ستغني معي، وعندما استفسرت منه قال ضاحكا:

- هيه مش هتغني معاك طبعا.

قلت في حيرة: أمال نزلت اسمها ليه في الإعلانات.

فوضع يده على كتفي وهو يقول بلهجة من يقرر شيئا خطيرا: انت اهتم بالفن، وسيبني أنا اهتم بالبزنس.

صحت في غضب: بس ده نصب.

رد في هدوء: أنا مش هتدخل في غناءك، وانت كمان سيبني أدبر أموري زي مانا شايف.

* * *

لم أعرف كم من الوقت نمت، لكني صحوت على رنين جرس الباب قبل المغرب بقليل، فقمت وفتحت لمدحت وأنا أشعر ببعض الانتعاش وأخذت حمام بارد وارتديت بدلة الحفلة، وكان لدينا بعض الوقت فجلسنا نتحدث، وتكلم مدحت بسعادة ثم قال فجأة:

- نسيت أقولك المفاجأة بتاعة النهارده: بعنا تذاكر الحفله كلها.

شعرت بارتياح كبير وسألته: معقوله كلها؟

- فضل معانا حوالي ميت تذكرة كان ممكن نبيعهم لكن وزعناهم.

لم أفهم شيئا من غمزة عينه عندما أتم جملته، فسألته بسذاجة: وزعتوهم على مين؟

أجاب ضاحكا: وزعناهم على ناس معروفين باسم مش مناسب، لكن أنا بسميهم مشجعين أو هتيفة.

أيوب.. بالمقلوب

أزعجني صوت جرس الباب وجعلني أهب من نومي.. سمعت صوت عم عيد «البواب» من الخارج ينادي بحشرجة: الزبالة يا أيوب بيه.

صحت بصوت ما زال نائما: حاضر ياعم قاسم حاضر.

أحضرت كيس الزبالة من المطبخ وسرت وأنا شبه نائم اسحب قدمي على الأرض، فتحت الباب وأنا أتئائب في تكاسل وعيناي نصف مغمضتين.

لكن استرعى انتباهي شيئا أطار ما تبقى من نوم في عيني، ففتحتهما على مصراعيهما وأنا أنظر إلى عم قاسم، فركت عيني بيدي وأنا أحملق فيه غير مصدق، هل عم قاسم اتجنن، أم أنني نائم أحلم؟

كان قاسم البواب واقفا بالمقلوب.. رأسه في الأرض وقدماه في الهواء دون أن يعوقه هذا الوضع من وضع كيس الزبالة في الشوال الكبير الذي يحمله بين يديه.. صرخت رغما عني: عم قاسم، ليه إنت واقف بالمقلوب؟

نظر إلي قاسم بدهشة وهو يصيح: سلامة نظرك يا أيوب بيه، أنا واقف أمامك معدول، الظاهر حضرت لسه نايم، أدخل كمل نومك.

قال ذلك وهو يحمل شوال الزبالة ويدخل بالمقلوب إلى الأسانسير ويغلقه خلفه.

دخلت إلى غرفتي واستلقيت على سريري محاولا النوم لكني لم أستطع، كان عقلي يفكر في عم قاسم المقلوب، أنا متأكد أنني لم أكن نائما، رأيته فعلا مقلوبا، وأردت أن أقطع الشك باليقين وأتأكد بنفسي.

أسرعت إلى الباب مرة ثانية وفتحته، ورحت أنادي على جاري الذي يسكن الشقة التي أمامي بصوت عالي وأن أرن جرس شقته: سمير.. ياسمير.

سمعت صوت سمير يسالني بانزعاج من خلف الباب: في إيه حصل إيه؟

- تعالى بسرعة، عايزك في حاجة مهمة.

فتح سمير الباب بسرعة ومشى ناحيتي، ولدهشتي كان مقلوبا أيضا مثل عيد البواب، ارتعش قلبي وصحت بنبرة خائفة: حتى إنت ياسمير.

نظر سمير إلى نفسه وسألني: خير ياصاحبي إيه الموضوع؟

كنت على وشك أن أصارحه لكني أمسكت عن الكلام وتركته يقف بدهشة ودخلت إلى شقتي كي أتأكد أكثر، فاتجهت إلى الشباك، ولما فتحته وجدت كل شيء مقلوبا: الناس، السيارات، العمارات، حتى التكاتك والدراجات النارية، فدارت الدنيا من حولي، وشعرت كأنني سيغمى علي، فألقيت بجسدي على أقرب مقعد وأنا أمسك رأسي وأتساءل:

- ما الذي أصاب الناس؟ هل موضة جديدة اتخذها الناس مع بداية العهد الجديد؟ أم أصيبوا بالجنون، وانقلبوا راسا على عقب؟ أم أن الحياة لم تعد تحتمل أن يمشي الإنسان معتدلا فصار كل شيء فيها مقلوبا؟

مر برأسي خاطر غريب: هل أنا أيضا مقلوب مثل الناس، أم أن الانقلاب لم يصلني بعد؟

أسرعت إلى مرآة حجرة النوم. نظرت فيها، لدهشتي وجدتني أقف معدولا، رحت أرقص أمام المرآة وأغني في سعادة: أنا معدول.. أنا معدول، ثم توقفت عن الرقص والغناء وتساءلت:

– ما فائدة أن أكون معدولا والناس أمامي مقلوبين؟

ثم قلت: بالتأكيد هناك سر وراء هذه الظاهرة الغريبة التي طرأت على الناس والأشياء.

ارتديت ملابسي بسرعة وبعد ثوان قليلة كنت في الشارع أحملق في الناس والأشياء.. الكل مقلوب.. رؤوس تمشي على الأرض وأرجل تضرب الهواء. قلت أن العيب قد يكون في أنا وليس في الناس، وقررت استشارة طبيب متخصص.

ركبت تاكسي مقلوب، يقوده سائق مقلوب، انطلق بي في شارع مقلوب، وتوقف أمام عمارة مقلوبة، صعدت الأسانسير المقلوب حتى وصلت إلى عيادة طبيب العيون المشهور، كان الناس يجلسون في صالة الانتظار وهم مقلوبون، أمرني الممرض المقلوب أن أنتظر حتى يحين دوري، وبعد فترة نادى علي فدخلت لأجد الطبيب يجلس مقلوبا.. سألني:

– شكوتك إيه؟

صحت بصوت مرتجف أرهقه الخوف والقلق: أرى كل شيء مقلوب يادكتور.

دون أن ينطق بكلمة أشار إلى «الشيزلونج» فتمددت عليه، فأخذ يتفحصني باهتمام، فتح عيني ووجه إليهما ضوءا شديدا، وأخذ يتأمل قاع العين على الكمبيوتر أمامه، تغير وجهه فجأة وسألني:

– منذ متى وأنت ترى الأشياء مقلوبة؟

- اليوم فقط يادكتور.

هز رأسه وهو يقول بلهجة محبطة: عيناك سليمتان تماما.

صحت منفعلا: وهذه الأشياء التي أراها مقلوبة أمام عيني يادكتور؟

حاول أن يبحث عن كلام مناسب: ربما يكون اضطراب عصبي بسبب التوتر أو الانهاك، أو.... قاطعته: والعمل يادكتور؟

رد ببساطة: أن تتعامل مع حالتك الجديدة بواقعية.

- معنى هذا أن أعيش بقية عمري بعيون ترى الأشياء مقلوبة؟

ترك مكتبه وربت على كتفي مواسيا مشجعا:غيرك يعيش كله دون أن يرى أي شيء.

- ولكنه يرى بقلبه والأشياء معدولة وليس مثلي أراها مقلوبة.

جلس الدكتور أمامي واضعا ساقا فوق ساق وهو يقول بلهجة فلسفية: من يدري، لعل عينيك المقلوبة ترى الأشياء على حقيقتها، وسوف تعتاد على ذلك ويكون الأمر طبيعيا بالنسبة لك.

تركته وقد حزمت أمري على أن أتعرف على حقيقة الأشياء بعيني المقلوبة، مدربا عقلي على أن يحول الصور المقلوبة إلى حقائق معدولة.

رحت أجوب الشوارع والحواري والأزقة أتفرس وجوه الناس المقلوبة ورؤوسهم التي تلامس الأرض، وأقدامهم تلوح في الهواء فأشعر بأحاسيس متضاربة ما بين السخرية والأسف.

أتأمل الأبراج والأبنية العالية التي كنت أراها تناطح السحاب فإذا هي الآن تلامس الارض، أسطحها مغروسة في الأرض ومداخلها معلقة في السحاب.

أعلامنا التي كانت ترفرف في الهواء تتعلق بها أعيننا في إجلال وتقديس أراها اليوم بيعيني المقلوبة مطموسة في التراب وصواريها واقفة جرداء مزعزة في الهواء كعود يابس اشتدت به الريح في يوم عاصف.

مررت بتماثيل زعمائنا ورموزنا الذين تتزين بهم الميادين فأجهدهم مقلوبين على رؤوسهم في ذل وانكسار فجن جنوني.

قادتني قدماي إلى الأهرامات الثلاثة رأرى رؤوسها مثبتة في الأرض وقواعدها في السماء، كدت أبكي، بل بكيت فعلا، رموز حضارتنا وتاريخنا المجيد الذي نباهي به العالم أرها في عيني مقلوبة رأسا على عقب.

لم أحتمل كل هذا الانقلاب، أيةكارثة هذه التي حلت بي؟ أهون علي أن أفقأهما من أرى الحقائق مقلوبة.

دون أن أدري وجدت نفسي أندفع بجسدي إلى الأمام، اتشقلب في الهواء كالبهلوان، رأسي إلى أسفل وقدماي في الهواء، وقررت أن أنقلب.

بالرغم من أنني صرت أضحوكة بين الناس ومثار سخريتهم ونكاتهم السخيفة إلا أنني كنت سعيدا لأنني استطعت أن أرى حقائق الأشياء كما ينبغي أن أراها دائما معدولة، حتى لو صرت وحدى مقلوبا.

حفلة تكريم العالم الكبير

استقبل دعوة تكريمه بدموع الفرح والاستبشار والأمل، تهللت أساريره، وتلجلج لسانه قائلاً لزوجته بسعادة طفل:

- مش قلت لك إن بلدي لا ينسى أبناءه أبداً. وأنا مغلطتش من ثلاث سنوات، لما قررت العودة إلى مصر للمشاركة في نهضتها الجديدة بعد الثورة... كنتي تقولين، بعد أن نلت شهرتي في الغربة، وبعد أن اهتم العالم باكتشافاتي، وكرّمتني جهات دولية مختلفة: لا كرامة لنبي في وطنه، فلماذا نرجع؟!

صحيح أن تكريمي أنا وزملائي تأخر سنين طويلة، وصحيح أن أحداً لم يطرق بابي ليستفيد من علمي واكتشافاتي. ولم يسأل عني أحد منذ عودتي.. إلا أن هذا لا يعني أن بلدي وضعتني على الرف وأهملتني.

في يوم التكريم.. ذهب قبل الموعد الرسمي بنصف ساعة يحمل على كاهله أعباء خمسة وستين عاماً واكتشافات علمية في أكثر من مجال تطبيقي.. إستقبله أحد موظفي لجنة التكريم، وقاده إلى الصالة الكبيرة.

إتجه لأحد المقاعد الأمامية وهم بالجلوس، فلحقه رئيس اللجنة وقال له متصنعا الأدب:

- معلش يادكتور.. الصف ده للمسؤولين.

- لكن مفيش حد..

أجاب بجدية: غالبا حضراتهم بييجوا متأخرين.

إنتقل إلى مقاعد الصف الثاني. فسارع إليه رئيس اللجنة:

- الصف ده كمان محجوز.. لمدراء الإدارات.

سأله عن الصف الثالث قبل أن يجلس، فأجابه:

- ده بقى للصحفيين والإعلاميين. اتفضل في الصف الرابع.. هو والصفوف إللي وراه للجمهور. إلحق كرسي.

قال له الموظف ذلك، ثم هرول إلى الباب لاستقبال كبار المسؤولين والمديرين، حينما أعلنت أبواق الدراجات النارية عن وصولهم.

بعد ساعة من التأخير، رحّب مقدم الحفل بالضيوف الذين شرّفوا الاحتفال بحضورهم... ذكر إنجازاتهم وما قدموه للوطن من خدمات، وشكرهم على تكرّمهم بالمجيء، مضحّين بوقتهم الثمين وراحتهم.

ثم أشار المقدم بكلمة موجزة- نظراً لضيق الوقت- إلى العالم الكبير الذي لم يهتم أحد بوجوده حتى هذه اللحظة. فنظرت العيون في أرجاء الصالة باحثةً عنه دون أن يتعرف عليه أحد.

في نهاية الاحتفال، تم توزيع الهدايا.. ميداليات ذهبية وفضية وبرونزية للمسؤولين الذين أقيم التكريم تحت رعايتهم، ومالية لأعضاء اللجنة المنظمة، وأخيرا شهادة تقدير ووردة ملفوفة بورق شفاف وشريط وردي

اللون للعالم الكبير الذي تقدم بتثاقل لاستلامها من وزير البحث العلمي ثم أنصرف خارجا.

بعدها شكر مقدم الحفل الوزير وكبار المسؤولين، ودعاهم إلى البوفيه المفتوح، حيث تناولوا طعام الغداء والمشروبات والحلوى والفواكه.

قبل أن يغادروا، سأل أحدهم:

- فين العالم الكبير؟ محدش شافه.

- قال آخر: الظاهر أنه خرج مع الجمهور.

- أضاف ثالث: نسيناه خالص... إزاي ده حصل؟

لكن لم يهتم أحد بالبحث عنه.. لأن الجميع كان مشغولا بخدمة الضيوف الكبار.

على رصيف الشارع، كان العالم الكبير يقف بانتظار تاكسي يوصله إلى منزله، يضع شهادة التكريم فوق رأسه لتقيه من أشعة الشمس وحرارة الطقس...

في حلقه غصّة، وفي ذهنه سؤال: هل كانوا يكرمونني أنا أم يحتفلون بكبار المسؤولين؟! خمسة وستين عاماً وعشرات الاكتشافات العلمية، وهذه الشهادة الورقية والوردة فقط!!.

عندما توقف التاكسي أمامه لف شهادة التكريم ووضعها في جيب بذلته... نزع الشريط الوردي والورق الشفاف عن الوردة.. قرّبها من أنفه، فلم يجد لها رائحة فقد كانت وردة صناعية.

الضابط: اعترف ياسعيد.. متتعبناش معاك.. قل إللي حصل بالظبط..

سعيد: الحقيقة يابيه.. إللي حصل إني لقيت نفسي غصب عني متورط لشوشتي.. النهارده الصبح خرجت لعملي المعتاد زي كل يوم:

منذ أن عملت بمهنة قارئ عداد الكهرباء وأنا أخبط على مئات الأبواب، وبمجرد أن يفتح لي أحد أدخل بطريقة آلية واتجه لعداد الكهرباء لحظات ثم أسجل الاستهلاك في الدفتر بعدها أخرج، دون النظر إلى أي شيء داخل البيت، حتى من يفتح لي الباب لا أنظر إليه.

نادرا ما يسألني من يفتح لي عما أريد لأنهم يعرفونني من هيئتي ومن الدفتر الذي أمسكه بيدي.

الأطفال فقط يهللون أحيانا عندما يفتحون لي الباب. أما الكبار فكنت ألمح في عيون بعضهم عدم راحة، لأن مجرد حضوري يكون مقدمة لضرورة دفع فاتورة الكهرباء.

بعد أن أنتهي من لفتي اليومية على البيوت، أعود مرهقا إلى غرفتي الصغيرة على السطوح لأني أعيش عازب، عمري تعدى الخامسة والثلاثين لكن لم أتزوج، كانت مسؤولياتي تجاه أخواتي البنات ثقيلة وضيعت علي سنوات عمري حتى تزوجوا، ولم أفكر في الزواج بعد أن تقدم بي العمر.

* * *

النهارده الصبح رنيت جرس شقة كعادتي كل يوم، ففتح لي رجل لم أنظر إليه كعادتي أيضا واتجهت ناحية العداد.. فوجئت به يغلق الباب ثم وجه شيئا صلبا خلف ظهري، وقال بصوت غليظ أخافني: مسدسي في ضهرك، خش جوه من غير كلام...

- مسدس.. مسدس.. ليه يابيه أنا معملتش حاجه، أرجوك سيبني أمشي عشان أكمل بقية شغلي..

دفعني أمامه بعنف فوقع الدفتر من يدي، فانحنيت لأشيله ولكنه جرني بقوة فتركت الدفتر وسرت أمامه مرغما... أردت أن أصيح فيه وأهدده، لكن صوتي اختنق فخرج من فمي حشرجة، وبدأ العرق يسيل من كل جسمي، وشيء آخر مكسوف أتكلم عنه بلل بنطلوني.

دفعني على أحد الكراسي فنظرت إليه بخوف وتساؤل، وقلت في نفسي شخص مجنون رماني حظي الزفت في طريقه.. كان الرجل بعين واحدة والتانية تالفة، جسمه طويل عريض وملامحه شرسة.

* * *

سمعت صوت رجل تاني من الداخل يسأل: مين ده؟

قال الأعور: ده «المغفل» كشاف عداد النور... وظهر رجل سمين مترهل الكرش من الداخل واقترب نحونا وسأل زميله: ناوي تعمل فيه إيه؟

قال الأعور: نلبسه المصيبة إللي جوه...

- السمين: اسمك إيه يا مغفل؟

أخيرا طلع صوتي كأنه قادم من بئر عميق وقلت: خدامك سعيد عشماوي ياباشا.

- الأعور: سعيد، وعشماوي.. ها ها ها، عشماوي هوه إللي هياخد أجلك لما يلف حبل المشنقة حول رقبتك يا.... سعيد، ها ها ها .

ضحك السمين أيضا فاهتزت كل اللحوم والشحوم المتراكمة على جسمه، وكان قفاه عريضا تمنيت أن أضربه بكامل كف يدي فيحدث فرقعة.

- السمين: احنا حنخدم الحيوان ده لما نخلصه من حياته، نموته هنا ونرميه جنبها، وتتحسب قتل وانتحار.

- الأعور: لا.. الفكرة دي ممكن تخلي الشرطه تشك، مفيش حد عاقل يصدق إن مدام سميرة ممكن تتعامل مع شخص بالمستوى ده.. نلبسه أحسن جريمة قتل بدافع السرقة.

- سعيد: يابهوات، سيبوني أمشي الله يخليكم، كده اتأخرت جامد عن شغلي وممكن اتفصل، او يتخصم من مرتبي.

- الأعور ضاحكا بسخرية: زعلان انه هيتخصم من مرتبك، ومش هامك إن عمرك كله هيتخصم.. ها ها ها.

- السمين: كلها ساعة يا شاطر وتلاقي نفسك بيتحقق معاك بتهمة القتل.

- سعيد: أنا أقتل، دانا حتى طول عمري مقتلتش فرخه، ولا أرنب.

- السمين: والقتيلة إللي طلعت روحها في الأوضه جوه، مين موتها يا أرنب؟

- سعيد.. يا دي المصيبة السودة، قتيلة.. ياعمي الشقة دي أنا معتبتهاش إلا لغاية عداد الكهربا.

- السمين: وإنت فين دلوقتي ياروح أمك؟

- سعيد: الأخ ده هو إللي دخلني لغاية هنا.. اساله.

- السمين: دخلك غصب عنك يعني؟

- الأعور: أنا لقيته مستخبي ورا الباب، بعدما ارتكب جريمته وقتل سميرة المسكينة.

- سعيد: هتجنن خلاص يا ناس، مستحيل إللي بتقولوه ده، أكيد دي الكاميرا الخفية.

فجأة وقف الأعور أمامي وعينه السليمة تكاد تقذفني بجمرات من لهب، فرفعت يدي مسترحما وقلت له بضعف شديد:

- إللي إنتو عايزينه أنا اعمله بالظبط، أؤمروني وانا أنفذ.

- الأعور: مش عايزين منك حاجه يا قفا غير إننا نسلمك للشرطة وتعترف إنك قتلتها.

- سعيد: بس أنا مقتلتش.. أنا.. أنا..

- الأعور: هتنكر إنك قاتل ياسفاح.. ورفع يده، فتراجعت للوراء لأبعد نفسي عن كف يده الذي كان على وشك أن ينزل على وجهي.. وكان السمين يمسك بسكين ثم بدأ يتحرك نحوي ببطء..

- سعيد: أنا بس عايز أعرف أنا عملت إيه بالظبط وبالتفصيل، ارحموني الله يرحمكم.

- الأعور: كده ابتديت تعقل، تعالى ورايا يا لوح.

* * *

وقفت وأنا انتفض، وسرت في الاتجاه الذي أشار إليه الأعور بمسدسه، ووصلت إلى باب مغلق أمرني بفتحه، فمددت يدي وأنا أرتعش وأدرت المفتاح ودفعني للداخل، وبمجرد أن دخلت وقع بصري عليها، كانت مستلقية فاقدة الحركة في فراشها ومغطاه بملاءة... وصاح الأعور وهو يدفعني بيديه: دي ضحيتك يامجرم؟..

قلت وأنا أنتفض: أيوه أيوه.. قلت ذلك وأنا أتحاشى النظر إلى المرأة المستلقية على السرير حى لا يغمى علي... وعندما أمرني بأن أجلس على الفراش بجوارها لم تطاوعني قدماي، لكن فوهة المسدس اللعين ناحيتي أجبرتني على التحرك والجلوس بجانب المرأة النائمة وكل جسمي يرتعش.

وبقسوة ووحشية أخرج يدها اليمين من تحت الملاءة فأحدث بأظافرها جرحا في عنقي، وأمسك يدها الأخرى وأحدث خرابيش في وجهي...

وجه الأعور مسدسه ناحيتي وأمرني بقسوة: إياك تتحرك من مكانك يا حيوان، وإلا هنموتك وندفنك معاها.. قال ذلك وترك الغرفة وأغلق الباب خلفه، فبقيت مكاني وقد تملكني الرعب.. ومضت دقائق لم أسمع فيها إلا صوت أنفاسي، ونظرت إلى الضحية ورفعت الملاءة عن وجهها الذي امتلأ بالأنوثة والحسن، بدت لي كالنائمة لكن لا تتنفس، ومع ذلك استبعدت أن تكون ميتة.

* * *

أعدت الغطاء وبدأت أجهد ما تبقى من عقلي في تذكرها، مرة كل شهر كنت أرن باب شقتها فتفتح لي وتستقبلني بابتسامة صامتة.. أو كان يخيل إلي ذلك لأنني كنت أتحاشى النظر إلى أي أحد يفتح لي، وكانت تقف في مكانها حتى أترك شقتها بعد أن أقرأ العداد، ثم أخرج وأنساها بمجرد أن تغلق الباب خلفي، ولم أعرف عنها غير هذا.

عند هذا الحد، بدأت أدرك خطورة موقفي، فقررت أن أتركها فورا وأعود لبيتي، وتجنبت أن يشاهدني أحد وأنا أترك شقتها.. ولكن بعد أن خرجت اكتشفت أن تركت دفتر الكهرباء داخل الشقة، ولم يكن لدي وقت ولا دماغ لأتذكر الدفتر أو أي شيء، حتى جاءت الشرطة وقبضت عليه ووصلت بين يديك.

- الضابط: حكاية لطيفة، واضح انك استغليت طبيعة عملك في دخول البيوت ووجدت السيدة وحيدة فحاولت الاعتداء عليها.

- سعيد: أنا.. أنا.. أعوذ بالله، أنا مقلتش غير اللي حصل ياباشا.

- الضابط: وفين الحاجات إللي سرقتها؟

- أنا ملمستش أي حاجه في شقتها.

- الضابط: لو مقلتش المسروقات فين حنحولك للنيابة.

- سعيد: ياباشا.. حرام.. أنا قلت لك اللي حصل بالظبط.

كتب الضابط شيئا في الأوراق ثم استدعى الضابط أحد العساكر وأمره أن يأخذني إلى الحبس.

* * *

قادني العسكري إلى زنزانة ضيقة محشورة بأشخاص جمعتهم الأقدار سويا، كل واحد منهم بانتظار كلمات فاصلة تقرر مصير حياته.

استسلمت لقدري وجلست في ركن من الزنزانة صامتا متبلد الفكر هد حيلي ما مر بي في نهاري من أحداث لم أكن أتخيلها.

وبعد وقت لم أتبينه فتح باب الزنزانة وأشار لي العسكري أن أتبعه، فنهضت وذهبت خلفه إلى غرفة في واجهتها يافطه مدون عليها «وكيل النيابة»،

انتظرت أمامها قرابة ساعة والحارس يلازمني مثل ظلي، ثم أدخلني فوجدت وكيل النيابة وشخص آخر يجلس بجواره..

وقفت أمام وكيل النيابة، تفحصني بنظره ثم سألني عم اسمي وسني وسكني، وكان الثاني يكتب، ثم سألني عما حدث فحكيت له القصة كما رويتها للظابط فلم يبد عليه أنه مقتنع بما قلته، فسألني عن مكان المسروقات وأعدت عليه نفس الكلام، فكتب شيئا بالورق وقال بلا مبالاة: يحبس ١٥ يوما على ذمة التحقيقات..

أعادني العسكري إلى الزنزانة فدخلت مستسلما وفقدت الإحساس بكل شيء، فأنا متأكد أني مظلوم ولم أفعل أي شيء أستحق عليه ما يحصل لي، ولا يمكن أن أستمر مظلوما وستظهر الحقيقة كما تظهر الشمس والقمر بعد غياب، لا يمكن اخفاء الحقيقة إلى الأبد.. وقلت لنفسي أن الله سبحانه وتعالى هو المطلع، وهو العادل، ولا يظلم ربك أحدا...

* * *

في الصباح نلقت إلى سجن آخر وسمعت بتهمتي لأول مرة.. كانت الشروع في قتل سميرة حسين ودخول مسكنها بقصد السرقة.. فاطمأن قلبي أن السيدة سميرة لم تمت.. الحمد لله.. دعوت لها بالسلامة والنجاة، فحياتي أصبحت مرتبطة ببقائها على قيد الحياة.

بعد يومين أفرجت النيابة عني، كانت السيدة فاقدة للوعي وكانت حياتها في خطر، وعندما أفاقت تم استجوابها فأكدت حكايتي..

كان الجاني شقيق زوجها المتوفي ذهب إليها بهدف سرقة مصاغها وأموالها، واستقبلته مع زميله مرحبة ولكنه غدر بها وكاد يزهق روحها، وهداه تفكيره الشرير لحظة أن حضرت الشقة لقراءة العداد وتأمر حتى يلصق التهمة بي، وجعلني أطبع بصمات يدي على كل شيء، وأحدث في وجهي ورقبتي جروحا تظهر كأن السيدة قاومتني، ظن الأعور والسمين أن السيدة ماتت، ونهاب المجوهرات والأموال وما خف حمله وغلاث ثمنه، وكادت خطته تنجح لولا أن القدر لطف بي.

ذهبت للنيابة لاستلم أوراقي ودفتر قيد الاستهلاك، وهناك رأيت الأعور والسمين والكلبشات في أيديهما، كان كل منهما يقف كالقطة مخفضان رأسهما بذلة فتركتهما وأنا اقول لنفسي يمهل ولا يهمل.

ذهبت لمدام سميرة للمستشفى لأطمئن عليها، كانت متعبة في سريرها، شاحبة، وتأملتها ورأيت تفاصيل تقاطيع وجهها الجميلة لأول مرة...

أدركت أخيرا معنى الحكمة البليغة: «تقدرون وتضحك الأقدار»، لقد ضحك لي الزمن بعد عبوس، وصرت سعيدا ليس باسمي فقط، ولكن بحياتي أيضا مع سميرة «زوجتي»، بعدها كنت أضحك معها وأقول: مفيش شهد من غير إبر النحل.

وقعت الواقعة بشكل مفاجئ، لا يتفق مطلقا مع سير الحياة هنا... في ذلك البيت الريفي البعيد المنعزل في قلب الجبل بأحد قرى الصعيد.

في تلك الليلة لم يكن يوجد ما يدل على أن شيئا ما غير عادي سيحدث، حقيقة الأمر أنه في مكان مثل هذا لا يتوقع المرء أن يحدث شيء مطلقا؟

كل الأمور تسير كما سارت منذ سنين طويلة، نباح الكلاب والذئاب كما هو لم يعد يثير الخوف، وصفير الرياح الصحراوية ما زال يعزف لحنه القديم، حتى أصوات الغربان وارتطام الخفافيش بنوافذ البيت؟... وفي الداخل، غرفة ضيقة بضوئها الباهت الذي ينقطع جزءا كبيرا من الليل والنهار، وبيوت العناكب في أركانها، وزجاج الشباك المكسور...

حتى الزمن، لم يكن هناك ما يدل على أن الليلة تختلف عن الأمسيات السابقة، ولم تمر ساعة أسرع من سابقاتها، ولم يتوقف الليل عن التوغل، ولن يتأخر بعده النهار...

كل شيء حول البيت وداخله صامت، كما هو الحال دائما، فالأصوات القديمة لم تعد أصواتا بعد أن فقدت تميزها من الصمت منذ وقت طويل... ومع ذلك فقد اختار القدر تلك الليلة بالذات ليحدث ما حدث، وماذا حدث، الأمر غاية في البساطة، ولكن كان حدثا، كان أمرا...

كان الصديقين وحدهما تلك الليلة في البيت المنزوي عن القرية في مكان ناء من القرية، وتلك مصادفة لا تتكرر كثيرا، ربما مرة أو مرتين كل شهر، ولكنها حين تحدث، يذهب جميع من بالمنزل لقضاء حوائجهما في القرية أو البندر إلا هما، ربما لأن وقت الفراغ هو الغالب على حياتهما بعد أن أنهيا الدراسة الجامعية ولم يتمكنا من العثور على أية فرصة عمل، وربما أيضا أنهما لا يرغبان كثيرا في الاحتكاك بأي إنسان ولا يبديان حماسة لمساعدة أهلهما في أي شيء مهما كان بسيطا حتى لو كان مجرد شراء متطلبات الأكل الأساسية، ويبدو أن كليهما قد قرر الاستسلام الكامل لليأس والاحباط والإنزواء والإنطواء أو أن لكل منهما أسبابه الخاصة.

الأكثر من ذلك أنه رغم صداقة العمر الوطيدة بينهما إلا أنهما لا يتكلمان كثيرا، إنما يتفاهمان بالإشارة، بالعيون، والإيماءات، بالصمت، ربما يضحكان أحيانا في همس، ويتبادلان كلمات قليلة متعذرة الفهم، وفي مناسبات قليلة يتصب بهم الكلام بصورة عادية ويضحكان بحكم الموقف، ولكنهما لم يتناقشان يوما أمر تلك العلاقة بينهما.

وكانت تلك الليلة، حيث جلسا كعادتهما في كل ليلة مشابهة، وبينهما رقعة «الشطرنج».. المعركة تسير على الرقعة في فتور وبطء، ويد كل منهما تحت ذقنه، ودخان السجائر الرخيصة يترنح في ميوعة كأنه تثاؤب لم يتم، وبين الحين والآخر تمتد يد لتحرك قطعة أو تزيح أخرى، ولكن في صمت، ودون أن ينظر أحدهما إلى صاحبه، ومع ذلك فقد كان يبدو واضحا أن بينهما تفاهم عميق.

حتى حانت أخيرا اللحظة الموعودة، ورفع أحدهما رأسه وهمس في ملل: كش ملك...مات...

رفع الآخر رأسه بدوره وابتسم، ثم طأطأ برأسه وهو يتمتم بكلمات متقطعة: خلاص انتهى كل شيء...

وصمت، ثم تهدلت ذراعاه إلى جانبيه، وهبط رأسه على صدره في إطراقة شديدة.

وقال الآخر وهو يعيد توزيع قطع الشطرنج ودون أن ينظر لصديقه: دور جديد ياصاحبي.

وبعد لحظة توقفت أصابعه، ورفع رأسه ثانية إلى صاحبه والتمعت عيناه، وبدت فيهما نظرة دهشة قلقة، ثم سقطت السيجارة من بين شفتيه، ولأول مرة ربما منذ شهور طويلة ارتفع صوته: مالك، في إيه؟

ماذا به، إن صاحبه لا يرد، أغمى عليه؟.. كلا.. إنه بارد جدا، ماذ حدث؟.. نبضه أخرس... قلبه لا يدق... لقد مات صديقي...

هذا الحدث هز كيانه حتى ارتعد، ودامت الهزة لحظة ثم انتهت لتترك برودتها على جبينه في حبات من العرق، وتلفت حوله، وهو يحس بثقل عنيف على كتفيه، ثم نظر إلى صاحبه وناده أولا في بطء، مرة... ثم أخرى، حتى أدرك أنه لن يرد فاستحال همسه صراخا، واندفع يهزه بيديه، ولكنه في أعماقه كان يدرك أنه انتهى.

مات؟؟؟... وتضخمت الكلمة في أذنيه وتحولت في عقله إلى ارتباك محير.

كيف يموت صديقي بهذه البساطة؟... وهو بالذات.. لماذا؟... صديقه الوحيد، أحقا مات؟... لا يمكنك أن تشك في هذا، فها هو أمامك... بارداً، ثم، هناك شيء آخر لا يجب أن يبيقى هكذا.

انتزع نفسه من مكانه.. وتوجه إليه، وحين حمله لم يحث له بثقل على الإطلاق... كان الثقل الوحيد جاثما في صدره.. يخنق فيه كل إحساس، حتى وضعه في غرفته، وغطاه، وأغلق الباب، وعاد إلى حيث كان يجلس.

شعر أن عقله وحواسه جميعا قد تيقظت لتفكر وتحس بشيء واحد... الموت؟... لقد ظل عاجزا طوال ليلته على استعادة مفهومه لهذه الكلمة فبدت له غامضة محيرة بالرغم من أنه شهد من قبل أقرب الناس إليه يموتون.. لكن وقتها كان لا يفكر.. كان يحزن، وأحيانا يبكي، وفي كل مرة كان يجذب شعر رأسه... ولكن هذه المرة الأمر يختلف، فلا بكاء، ولا حزن، لا انفعال إلا مجرد الدهشة والاحساس بالغموض والتبلد، وتحول إلى مجرد عيون تحملق في لا شيء.

هذا الذي مات، كان صديقه الوحيد، وكان يحبه ويفضل دائما أن يكون معه، وقد مات، انتهى؟.. انتهى فعلا، ولم يعد فيه إلا جمود بارد تغطيه ملاءة بيضاء... ومع ذلك لا يحس بالحزن.. نعم.. الأمر واضح، صدره خال لا تحتبس في عينيه ذرة دمع ولا تنهيدة أسى... فكيف؟.. أهي الصدمة القوية التي أخرست حواسه وجمدت الإحساس.

ولكنه لا يحس بصدمة، إن حواسه كلها متيقظة، وهو يدرك كل شيء حوله، يعرف أن له صديقا مات منذ لحظات... وقد أرقده على سريره.. وغطاه.. وأغلق حجرته.. ثم عاد وجلس في نفس مكانه وهو يسمع نباح الكلاب وصفير الرياح.

هو يسمع... ويدرك كل شيء؟... إذا فلم تكن هناك صدمة بالمعنى الحقيقي، ومع ذلك... لم يحزن فهاله الأمر، وأصبح كل همه أن يبحث عن

موطن الحزن في نفسه.. ولكن كان من العبث أن يجبر نفسه على الحزن، وعاد ثانية يفكر في الموت.

صديقه لم يكن مريضا، لم يشك من شيء مطلقا، مات في هدوء وكأنه ينام... نام؟ وذكرته تلك الكلمة بأن الفجر قد اقترب.. وبأنه لم ينم حتى الآن، ولكنه لم يشعر بالرغبة في النوم، بل كان يخشى إذا نام أن يلحق بصاحبه.

فجأة هب واقفا، لقد سمع شيئا... صفير قطار بعيد، متقطع، كأنه ناي في السماء... إنه القطار العسكري يمر تحت سفح الجبل، ويطلق صفارته كالمعتاد عندما يمر بمحازاة القرية، وكأن القطار أحس أن روحا قد خمدت فيه، فكان الصفير حزينا، متقطعا، كأنه شهقات يمزقها الألم، أو ربما خيل إليه ذلك... وسأل نفسه: أتراهم يحسون؟.. هؤلاء الذين في القطار؟... ولم يهتم بالجواب فقد أحس فجأة بالحزن... حزن جارف عميق... يمتزج بشيء من الدهشة.

الآن فقط يشعر بالحزن... ولماذا؟... وبرق خاطر كاللمح في ذهنه، ولكنه لم يعرف حقيقته، وتعب من مطاردته فعاد ينصت متوتر الأعصاب إلى صفير القطار الحزين، وبدا له في تلك اللحظة كأنه نداء يأتي من عمق سحيق.. نداء خافت لكنه مليء بالحياة.

وهب من رقدته، واندفع نحو نافذة البيت التي تطل على سفح الجبل، وحملق في الأفق المظلم، وراح يبحث بعينيه مسترشدا بالصفير، وكأن بحثه محموما يرتجف باللهفة. لكن القطر غاب عن نظره أخيرا، ولم يعد ير شيئا، عجزت عيناه، وأحس بالصداع والحزن، وعاوده في لحظة الشعور بالرهبة، رهبة الموت... تلك التي عجز عن تصورها قبل لحظات تمتلك له الآن لحظة

إلهام مفاجئة.... لكنها كانت لحظة قصيرة خاطفة لم تدم حتى توفر له اليقين فقد غاب في جوف الصمت ذلك النداء الخافت الحزين، انقطع الصفير وتلاشى صداه، وعاد الأمر إلى ما كان عليه...

اختفى الحزن، وتبخر الألم، وانتهت اللهفة المحمومة، ولم يعد هناك غير الإبهام والغموض، يلتقان في ذهنه حول تساؤل أعرج عن الموت، وبدت له اللحظات السابقة كأنها حلم قصير مر في غفوة عابرة.

امتلأت رأسه بأفكار كثيرة، متنافرة، متناقضة، حتى كادت تنفجر، فترك نافذة البيت، وعاد إلى الحجرة التي كان يجلس فيها مع صديقه، ونظر إلى المقعد الذي كان يجلس عليه، وأمامه المقعد الآخر، فهاجمه سؤال مباغت: «لماذا لم يحدث الأمر له؟ هو بالذات؟ أهي صدفة؟ أكان من الممكن أن يحدث ذلك؟

أحس برعدة باردة، ولكن لم يعبأ لها، وفي تحد لا يعرف له سببا، توجه إلى مقعد صاحبه وجلس عليه.

وعندما صحا من نومه، كانت الشمس تغمر الحجرة، وكأن يحس بآلام عنيفة في رأسه وظهره، وتملكته دهشة مؤقته حين اكتشف أنه قضى بقية الليلة نائما على المقعد، ولكن حين تلفت حوله تذكر كل شيء... الليلة الماضية، بكل ما فيها، «الشطرنج»... وصاحبه... والموت...

هاجمته الكلمة من جديد: «الموت»...ومضت لحظة ظن فيها أن النهار سيساعده على التفكير بصورة أكثر وضوحا، ولكنها كانت أمنية عنيدة تأبى

أن تتحقق، لم يستطع، في الواقع لم يستطع مطلقا أن يفهم ما حدث، وحاول أن يتناول الأمر في بساطة وقال لنفسه: «.... مات صاحبي، هذا ما حدث، كما يموت الآخرون، لا شيء يستحق الغموض والإبهام... أية غرابة في أن يموت إنسان؟»... ولكنه أحس ببعده عن هذه الفكرة، لم يكن مقتنعا بها في داخله.

«هناك شيء لا أفهمه، كيف يموت صاحبي ولا أبكيه؟... لقد بكيت قبله كثيرين لم أرتبط بهم كما ارتبطت به، لم أبكهم رياء بل كنت حزينا بالفعل، فكيف إذا لم أبك صديقي؟ لم أحس بالأمر إلا لحظة خاطفة.. حين سمعت صفير القطار بالأمس ثم انتهى كل شيء.. لماذا؟... هذا ما لا أفهمه».

ونظر حوله ليتخلص من حيرته، ولمح رقعة «الشطرنج» حيث تركها بالأمس، وتذكر، آخر ما قاله صاحبه: «انتهى كل شيء»... قال ذلك حين انتهى الدور.. بعد أن مات ملكه، وكان يبتسم، عجبا، لقد مات هو الآخر، ولكن»... وتوقف عن هذا الخاطر حين دفع إلى ذهنه بسؤال غريب: «أمات صديقي حقا، أليس من الجائز.. أن يكون... ولكن، كلا.. لا مجال للشك، ومع ذلك....»

ونهض على الفور يدفعه إحساس بالشك أو الرغبة في التأكد.. حتى وصل إلى الحجرة التي نقل فيها صاحبه وفتحها، وأطل برأسه.. ولمح الملاءة البيضاء، جامدة، ساكنة... وفجأة أحس بالفزع... ودون أن يدري سببا لفزعه أغلق الباب وعاد أدراجه بسرعة مرتجفا.

موعد عودة أهلي من البندر اليوم، يجب أن يعودوا، يجب وإلا ساءت العاقبة.. لن أمكث في هذا المكان يوما آخر.

لقد أحس أخيرا، وكان احساسه بعيدا كل البعد عن الحزن، لقد كان فزعا، فزع مباغت لم يدر له مصدرا، لكنه ألهاه عن كل شيء، غير الانتظار.

لم يعد يفكر، أو يتساءل، وكيف عن محاولاته للبحث عن الحزن، بل لقد نسي كل شيء عن الليلة الماضية، في لحظة أصبح كل همه أن يرجع أهله، وإلا تحطمت أعصابه... هذه الجثة، ماذا يحدث لو لم يأتوا في أقرب وقت، ستتعفن وستملأ الرائحة البيت كله وربما ما حوله.

وأفزعته الصورة التي تخيلها.. ودفعته إلى خارج البيت، وكأنه يهرب من سجن، حتى وصل إلى الباب، فاستقر أمامه على صخرة صغيرة، وتعلقت عيناه بالطريق الضيق الهابط على سفح الجبل.

«سأبقى هنا حتى يعودوا، ولو أدى الأمر إلى أن أظل هنا للأبد، تحت لهيب الشمس».

وكان الحر في عنفوانه، وشمس الصعيد تتوهج وتلهب الجبل، والأرض، وكل شيء، ولكنه لم يبال بشيء، لم يشعر إلا بالقلق، واللهفة، وقلق الانتظار، وبقيت عيناه على الطريق لا تتحولان، كأنه طفل ينتظر مخلوقا أسطوريا سيأتيه من السماء بكل ما يتمناه.

وكان من الممكن أن يمتد به المقام في مكانه وتتعقد المشكلة، لكن هذا لم يحدث، فبمثل البساطة التي حدث بها كل شيء في الليلة الماضية لمح أهله عائدين من بعيد.

وكان يتوقع أن يجري إليهم مهرولا ليرتمي في أحضانهم ويطلب منهم أن يذهبوا به بعيدا عن هذا البيت، لكن تملكته دهشة عجيبة حين تبدلت كل مشاعره، وفوجئ بنفسه يفكر فيما سيحدث حين يعرفون ما حدث، وكيف يقول لهم آن صديقه مات...

اقتربت العربة التي جاءت بها عائلته، وانكمش هو في مكانه، وتبين وجوههم من بعيد، ورآهم يلوحون له، لا شك أنهم يظنون صاحبه نائم داخل البيت، هم يعلمون أنه سيواجههم وحده، دون ظله، فاحس بانتفاضة في صدره، وغصة في حلقه، ثم انهار في بكاء عنيف، وكان حزنه عميقا قويا، انفجر في لمحة وانساب كالفيضان، وذهلوا جميعا، والتفوا حوله:

- ماذا حدث؟ ماذا بك؟

- أجابهم: مات...

- من؟

- سمير...

أحس أخيرا أن سمير... صديقه... مات.

وبعد وقت لا يدركه، هدأ حزنه، وبقيت في نفسه لوعة صامتة، ورآهم يحملون الملاءة البيضاء ويعودون بها إلى العربة التي جاءوا بها، وهو يمشي وراءهم الجميع صامتون، وفي الطريق سمع صوت صديقه يقول بنحيب: رحم الله «همام» مات في عز شبابه... فانتابته رعشة شديدة حين سمع اسمه يتردد بينما هو نائم تحت الملاءة البيضاء.

اضطر يوميا للف والدوران حول مدينتي الصغيرة، حتى أستطيع الوصول من البيت إلى العمل وبالعكس، لكنني لا أشعر بأي تعب وأنا أقطع آلاف الأمتار، بل أجد في هذا المشوار العزاء الذي يهدئ من روعي ويمنحني الأمن، وهو أن أقضي ما بقي من عمري أتجنب الناس ولا أضطر لرؤية أحد أو يراني أحد، حتى تحين الساعة التي أنتظرها بفارغ الصبر.

* * *

أعترف لكم أنني أدفع ثمن ذلك باهظا، لأن الطريق الذي أسلكه يوميا يسبب لي من المتاعب ما لا يعد ولا يحصى.. ولأنني بطبعي عنيد، فلم أتنازل عن قراري في تجنب التعامل مع أي إنسان مهما حدث، حتى الموبايل الذي اضطررت في أحد الأيام إلى شرائه، لم استخدمه إطلاقا في الاتصال بأحد أو أن يتصل بي أحد.

الأطفال حينما يروني ينادي بعضهم بعضا بنبراتهم الساخرة الضاحكة: «أحمد.. رشا.. جلال.. سمر.. أهو جه أهو جه...»

يتجمع الأولاد والبنات حولي مشكلين حلقات، يشيرون إلي محملقين بعيون تشع بريقا، وصياحهم حولي يشتت أفكاري..

والنساء.. أجل النساء.. يتغامزن ويتهامزن.. سمعت إحداهن يوما تقول لأخرى:

- أهو جه في نفس المعاد، شوفي، أهو جاي.

- تقصدي مين؟

- الراجل إللي بيمشي جنب الحيطان.

- ها ها ها.. راحت الأخرى تضحك، أما أنا فلا ألتفت إلى كل هذا، فقط أكتفي بنظرات سريعة، ثم أمضي في طريقي مهرولا.

* * *

لكن كل هذه الأحداث العدائية التي تقع لي كلما مررت على أحد لا تجعلني أتخذ أي موقف مضاد، إذ أن هذا قد ينتهي بي إلى أن أضطر لمبادلة أحدا أي حديث، وكل ذلك أكرهه من الأعماق، وأحاول بشتى الطرق أن أتجنبه ولو عن طريق التحامل على نفسي وكبت جماحها المرة تلو المرة.

قلت في نفسي أنني لو رددت على أحد او نظرت لأحد فسوف أثبت التهمة علي نفسي، وسأكون أكثر سخرة بين هؤلاء العابثين، وسيزداد حولي الأطفال المهللين الذي يجرون خلفي، ويقذفونني بالحجارة إن لم يكن بالبيض الفاسد والطماطم المتعفنة، وكل ذلك إن حدث فسوف تكون له عواقب سيئة.

* * *

عندما أعود إلى حجرتي فوق السطوح، تلاحقني هذه الأحداث والمواقف وتلح على رأسي طوال الوقت، وأحيانا كثيرة تمر علي ليال متتابعة لا أذوق

فيها طعم النوم.. أظل أتقلب في الفراش، أهرش ظهري، بطني، رأسي، أصابع قدمي، أتقلب وأتقلب، أشد الغطاء على رأسي فتتكشف قدماي فألوي جسدي حتى لتكاد رأسي تلامس بطني، أظل هكذا للحظات حتى أشعر أني على وشك الاختناق فأزيح الغطاء بعصبية عن جسمي فينزلق على الأرض، فأحملق فيه وعلى شفتي شبح ابتسامة.

تتلوى ملاية السرير على الأرض كحيوان في قاع النهر، ينثني بعضه على بعض، وأشعر بأعضائي تتقلص، يغلب علي شعور ما، فانتفض كعصفور مبلل، أقف طويلا أراقب الأشياء من حولي، الدولاب الواقف في صمت مستندا إلى الحائط، اللافتة المعلقة عن يمينه، الترابيزة ذات الثلاث أرجل تحتل جزءا صغيرا بجوار الدولاب، الكوب الزجاجي عليها، ورقة بيضاء بجوار ما تبقى من فتات عشاء الليلة الماضية، حذاء مقلوب على الآخر، كقطة تنام في حضن الأخرى، أعقاب سجائر متناثرة على الأرض، فواصل البلاط الملطخ بالنمل والصراصير التي أسحقها بقدمي، زجاجة في الركن لونها داكن تعكس ظلا خفيفا يوحي بالعدم، المصباح المعلق في السقف بشكل انسيابي، ثلاث ذبابات على الفوطة المتدلية من مسمار، أواني الطهي.

* * *

ورغم أن غرفتي تحفل بكل ما يمكن أن تتخيله من مخلفات، إلا أنها تخلو من أي أوراق صحف أو كتب، فمنذ طفولتي المبكرة كرهت القراءة كره العمى، لذلك قد تستغرب من أول وهلة إذا رأيت هذه الورقة المعلقة على الحائط

والمكتوب عليها بالخط العريض اسمي (صابر)، إذ أنني نسيت اسمي.. لذلك حين تذكرته- اسمي- قمت على الفور وأنا أشد بيدي على رأسي خوفا من أن يطير اسمي، فبحثت عن قلم وورقة وكتبت هذه اللافتة.. التي تشبه لافتات المحلات التجارية أو الإعلانات على جدران الشوارع، رغم أنه ليس لدي ما أعلن عنه.

لكن ذلك لا يعني أنني منعزل عن العالم تماما- كلا- فأنا أعمل وآكل وأعيش في بيت، وقد أهدتني السماء ثلاثة أصحاب: صاحب العمل، وصاحب الدكان، وصاحبة البيت.. ومن حسن حظي أنني تمكنت من إقامة علاقة خاصة بيني وبين هؤلاء الأصحاب تقتصر على لغة الإشارة، ولم استعمل مع أي منهم لساني حينما اضطر إلى التعامل مع أي منهم، وذلك ما جعل الألفة بيني وبينهم استمرت لسنوات..

* رب العمل اعتاد أن يكلفني بما يريد أن أؤديه من أعمال بالإيميل أو الشات، رغم أن مكاني بالشركة لا يبعد كثيرا عن مكتبه، وبالطبع فإنني أقوم بكل ما يطلبه مني على أكمل وجه حتى لا أضطر إلى أن يتحدث معي أو يكلف سكرتيرته بتوصيل أمر ما إلي.

* كذلك الأمر بالنسبة لصاحب الدكان، الذي يحملق في وجهي طوال الوقت الذي أقضيه أمام دكانه حتى يحضر لي طلباتي التي كتبتها له في ورقة. لكنه- هذا الملعون- كان يتعمد أحيانا أن أظل واقفا لأطول مدة ممكنة- دقيقة أو دقيقتين. وذلك هو الأمر الذي جعلني أكرهه، بل

إنني أعاقبه معاقبة شديدة: أحملق فيه بعينين جاحظتين طول الدقائق التي يوقفني فيها أمامه، وذلك ما أعتبره أشد عقاب له.

* أما بالنسبة لصاحبة البيت فالأمر لا يزيد عن ذلك.. ثلاث طرقات على الباب كل أول شهر، فافتح الباب وبيدي الإيجار. تسلمني الإيصال. ثم تمضي. حدث ذلك طوال سنوات سكني في بيتها، إلا مرة واحدة جاوزت عتبة الغرفة بعد أن أعطيتها الإيجار، وقفت برهة تنظر إلى متعلقاتي نظرات غريبة، وكانت تحرك رأسها يمينا وشمالا وهي تلهث كالكلب، وضعت يدها اليمني على قلبها ونظرت لي بعينيها، وفجأة اسقطت الطرحة من على رأسها، فنظرت إليها بغضب وسألتها ماذا تريد؟ فقالت بصوت هامس: هل أدخل، ثم أضافت «عايزاك»، فأوصدت الباب في وجهها كي أقطع عليها طريق حيلتها الخبيثة، ثم حدثت نفسي: «هذه الملعونة الشمطاء.. ماذا تريد مني؟ إنها تريد أن تدخل.. ياحلاوة.. تريد أن تتحرش بي.. هذه التي تجاوزت العقد التاسع، بهذا تنطق التجاعيد والشعر الأشيب الذي بان تحت طرحتها، هذه الكلبة».. وبعد مضي بعض الوقت نظرت من ثقب المفتاح فلم أجد أثرا لها، تيقنت أنني أعطيتها درسا لن تنساه.

* * *

فتحت عيني على أول خيط من أشعة الشمس التي انسابت من ثقوب النافذة تشكل ظلالا متشابكة على كراكيب غرفتي، ولأنني قضيت طوال

الليلة الماضية في أرق وسهاد، ولم أغف إلا غفوات متقطعة، لذلك ظلت جفني مغلقتين كأنهما ملتصقين بمادة لاصقة، وكلما حاولت رفعهما بأصبعي عادا ليلتصقا مرة أخرى، إلى أن تغلبت عليهما بعد شد وجذب.

بدأ هذا اليوم كالمعتاد، إلا أن نفسي كانت تحدثني طوال الوقت الذي قضيته في الطريق إلى العمل بل وحينما كنت أؤدي العمل بخاطر غريب، لا أدري ما هو، وركبني الوسواس، ولم أكن أفطن من قبل إلى هذه القدرة الغريبة التي اكتشفتها في نفسي.

ما إن وصلت إلى الشارع الذي يوجد فيه بيتي، حتى اكتشفت الحقيقة التي ظلت طوال اليوم مجرد وساوس، ولم يكن الخاطر الذي طاردني طوال الليل والنهار كابوسا أو حلما من أحلام اليقظة، إذ أنني لم أجد باب غرفتي، بل لم أجد البيت كله.

تراجعت إلى الوراء قليلا لأتأكد أن هذا هو مكان البيت.. نعم هو بالضبط، هذا هو البيت المجاور المطلي باللون الأحمر على اليمين ومكتوب عليه حج إلى بيت الله الحرام، وهذا هو البيت الذي تتداخل فيه الألوان، وهذا هو مخزن الخشب أمامه..

أين البيت إذا؟

وقفت أتأمل الأرض الفراغ، لعلي أستطيع العثور على دليل ما، يفسر ما يحدث، فلم أعثر على أي أثر ظاهر.. لم أصدق عيني، فرجعت عدة خطوات

إلى أول الشارع حتى أتأكد من أن الحارة هي نفس الحارة التي كان بها البيت، نعم هي وهذا هو الدكان.. إذا أين البيت؟

عدت مرة ثانية إلى مكانه، أغمضت عيني على أمل أنني سأجده عندما أفتحهما، لكن بلا جدوى.. وقفت أتأمل قطعة الأرض الفضاء، ولما طال بي الوقوف، رجعت إلى صاحب الدكان أسأله عن سر البيت لعله يعرفه، كان الرجل يتحرك في دكانه، بينما طابور طويل من الناس يمتد أمام الدكان يزاحم بعضهم بعضا. اخترقت الطابور وتقدمت نحوه، فصرخ الجميع في:

- قف في الطابور.

- أريد أن أسأله عن بيتي. أين البيت الذي كان هناك؟ أين ذهب؟ أين بيتي؟

ضحكوا ضحكات مجلجلة، فتجاهلتهم واتجهت صوب الدكان. صرخ صاحب الدكان في وجهي:

- ماذا تريد؟

- قلت له: ألست أنت.. أنت؟

- أنا.. من أنا.. من أنت.. ماذا تريد؟

تراجعت للوراء وأنا أرتعد خوفا.

- البيت.. أريد أن أسألك عن البيت. أين ذهب بيتي؟

- ليس هناك شيء.

- كان في الصباح هناك.

- أنت مجنون، أنا لا أعرفك، ابتعد عن هنا.

رد الجميع: امشي من هنا، ماذا تريد، روح، روح.

نكست رأسي للأرض.. وأنا أهم بالذهاب، لكني صممت على اكتشاف الحقيقة، فقررت الذهاب إلى شركتي لأسأل مديري. وجدت جنازة، رجال يقفون منكسي الرؤوس، نساء يندبن الفقيد، سألت من هو؟ فقالوا لي إنه مدير الشركة.. لعنتهم من الأعماق. آخر خيط يثبت لي أنني أنا «أنا»، قد انقطع.

عدت من نفس الطريق الذي أسلكه كل يوم. كان الأطفال منشغلين بلعبهم. وجدت مجموعة منهم في دائرة، قلت لهم: لم لا تحملقون في، ألا تعرفونني؟

تراجع الأطفال إلى الوراء، فزعوا وجروا من أمامي. ظلت طفلة منهم تقف ببراءة، تضع اصبعها في فمها، نظرت إلي باستغراب قالت:

- لماذا يجرون منك، لماذا جعلتهم يجرون، كنا نلعب لعبة العروس والعريس.

ابتسمت لها، لكن قالت: لم تبك ياعمو؟

- أنا؟

- الدموع في عينيك.

مدت يدها، نظرت إلي طويلا، ركعت على ركبتي أمامها:

- حبيبتي، مش عارفاني؟

- لا.

- مشفتنيش خالص قبل كده؟

- أبدا، مش عارفاك، سيب إيدي، سيب إيدي. وركضت لتلحق بالأطفال وهي تنادي عليهم.

استبد بي التصميم على التحقق من الأمر، أخذت أجري حتى وصلت إلى مكان البيت حيث الأرض الفضاء، لفت نظري ورقة ملقاة على الأرض.. أمسكتها.. هذا هو الدليل القاطع على صدق ظني، اللافتة مكتوب عليها اسمي، نعم هي، اسمي، هو (صابر).. يا حلاوه.

غمرني فرح شديد، ذهبت إلى صاحب الدكان، لأخبره بالعثور على الدليل القاطع أن البيت كان هنا، وأنه صاحب الدكان الذي كنت أشتري منه كل يوم..

لكني وجدت الدكان مغلقا بالشمع الأحمر، فشعرت بإعياء يجتاح جسدي.. قلت في نفسي: ليس لي مأوى، ولم يعد لي من بقاء في هذا البلد..

* * *

قلت لنفسي: أين أذهب؟

إلى أي مكان، إلى أي مكان، علني أجد من يخبرني من أنا، دفعني شعور باللامبالاة إلى ترك مدينة إلى أي مكان آخر.

في أثناء مغادرتي وجدت امرأة تشبه كثيرا صاحبة البيت، تحققت منها أولا، اقتربت منها، نظرت إلي نظرة نكراء. سألتها:

- ياست، إنت ياست، مش إنتي هي؟

- أنا، أنا مين، ابعد عني وإلا.... رجل قليل الحياء، لست منهن، أنا ست شريفة.

قذفت الكلمات من فمها مثل الطلقات السريعة. فلم أجد بدا من البحث عن مأوى آخر.

حل علي الظلام، حتى وجدت شجرة تجلس تحتها عجوز في منطقة نائية خارج المدينة، لم أكن أسمع صوتا، فقررت أن أقضي الليلة هنا، ولم أعد أفكر في شيء، فقدت القدرة على استرجاع أي حدث من الأحداث السابقة، نمت من شدة التعب، صحوت في منتصف الليل على صوت أنين

خافت، رفعت عيني فزعا، وجدت قطتي تجلس بجواري، نظرت إلي بعينين زائغتين، هزت ذيلها باستجداء، يبدو عليها المرض، أشرت إليها بيدي فاقتربت مني، التصقت بي تنشد الدفء والأمان، نمت بينما هي بجواري.

في الصباح، ما إن بدت أشعة الشمس من وراء الأفق صفراء باهتة، حتى وجدت نفسي مرغما على ترك المكان، إذ أن المارة كانوا حينما يقتربون مني، يتمصمصون وهم ينظرون إلي بعيون مشفقة.

لم أكن قد اكتشفت حتى هذه اللحظة، أنني قضيت ليلتي بجوار الطريق، فكر في أمر قطتي قليلا، وجدت نفس أخلع قميصي، وأصنع منه حبلا ودون أي تفكير في العواقب، ربطتها في رقبتها وسرت، تتبعني قطتي الوفية.

زقاق "البومي" المتفرع من حارة "أم المساكين" بدرب "البندقي" بالسيدة زينب.... منزل الحاج "حسنين مغاوري"... كان على "إنجي السماوي" المذيعة بقناة "الأحلام" أن تصل إليه في ذلك اليوم مهما كلفها الأمر من مشقة وعناء...

ولم تكن إنجي هانم وحدها هي المكلفة بهذه المهمة الشاقة، بل كان في صحبتها معد برنامجها عمرو، والمصور محسن... وتكون من الثلاثة وفد منسجم الأطراف انطلق بسيارة القناة الفضائية إلى السيدة زينب، التي لم يكن الوصول إليها بالشيء الصعب، بل كان الصعب هو الوصول إلى هذا الزقاق في تلك الحارة بذلك الدرب بالسيدة زينب.. وإلى منزل الحاج حسنين مغاوري بالذات.

بدأ وفد الفضائية بالسؤال وقوبلوا من البعض بالاعتذار المؤدب، ومن البعض الآخر بالتهكم والتندر.. ولكن قبل أن ييئسوا من العثور على العنوان المطلوب هداهم تفكيرهم إلى سؤال سمسار شقق قابلوه بالصدفة، فقال لهم أنه مولود "بالحته" ويعرفها بيتا بيتا، فاتفقوا أن يعطوه مبلغا من المال مقابل أن يدلهم على العنوان، ومع ذلك بدأ يعتصر ذهنه كي يتذكر أين يقع هذا الزقاق في تلك الحارة من ذلك الدرب.

قال لهم السمسار: نروح في الأول إلى درب البندقي... وشقت سيارة الفضائية طريقا وعرا متعرجا كان أصعب ما فيه مضايقات أطفال الحواري والمياه الراكده على الأرض التي كادت السيارة تغوص فيها عدة مرات، حتى وصولوا أخيرا إلى درب البندقي، وهناك عادوا يسألون عن حارة

أم المساكين فأجابتهم فتاة من بنات الحته بضحكة مائعة "شيء لله ياست" وحاولت التبسط معهم في الحديث وطلبت أن يعطوها فرصة عمل في الفضائية.

كادوا أن يتركوها ويمضون في طريقهم مثلما تركوا قبلها عدة أفراد من المستظرفين والمتطفلين لولا أن استوقفتهم وبدأت تصف لهم الطريق إلى الحارة، من اليمين ثم اليمين أيضا ثم اليسار ثم العودة للخلف ثم صعود مرتفع ثم الهبوط مع المنحدر حتى يصلوا إلى حارة أم المساكين.

لم يجدوا مفرا من ترك السيارة وأن يتابعوا رحلتهم الشاقة سيرا على الأقدام لأن الطريق متعرج وعر شيق وضيق، وعندما حمل محسن كاميرا الفيديو الكبيرة على كتفه كان منظرهم مثيرا للمارة من أهالي الحارات التي يمرون بها، خاصة المذيعة إنجي بوجهها الملائكي، وفستانها الذي يكشف عن ذراعيها البضتين وجزء مثير من لحم ظهرها الناعم وهي تسير بصحبة الشابين والسمسار.

أخذ أطفال الحواري ينضمون إلى موكب المذيعة وزميليها على دفعات تزيد كلما اقترب الموكب من حارة أم المساكين التي يقع فيها زقاق البومي ومنزل الحاج مغاوري.

لم تنفع صيحات السمسار في إبعاد الأطفال عن المذيعة وزميليها وإفساح الطريق لهم.. بل زادهم الأمر إصرار على متابعتهم حتى النهاية لاستطلاع الخبر ومعرفة سر حضور المذيعة الحسناء إلى عالم القابع في زوايا النسيان... وعلا صراخ محسن المصور وهو ينهر أحد الأطفال وهو يلح عليه أن يصوره حتى يظهر في التلفزيون، بعد أن نفد صبره من كثرة إلحاح الأطفال وحتى الكبار عليه لتصويرهم...

وبكت المذيعة إنجي وهي تتعرض لسيل من عبارات التحرش والغزل المفضوح، وأفنعها معد البرنامج عمرو بأن تجعل لها أذنا من طين وأخرى من عجين حتى تنتهي مهمتهم.

وصلت "الزفة" أخيرا إلى حارة أم المساكين ومنها إلى زقاق البومي ولاح لهم منزل الحاج مغاوري الذي لم يكن سوى بيت قديم من طابقين مبني من الطوب الأبيض بين مجموعة عشوائية من البيوت في زقاق لا يزيد اتساعه عن المترين عرضا يلطخ الوحل أرضه والنفايات متناثرة على جانبيه.

وكان دخول المذيعة وزميليها للحارة قد سبقه صياح الأطفال وإعلانهم خبر بحث بتوع التلفزيون عن منزل الحاج مغاوري بطريقة مثيرة جعلت كل سكان الزقاق يخرجون لاستطلاع الخبر ومعرفة السر الذي من أجله يحضر ثلاثة من التلفزيون إلى زقاقهم البعيد القابع في أعماق حي السيدة زينب..

ما هو السر، ماذا حدث؟

وكان الحاج مغاوري هو أكثر سكان الزقاق احساسا بالدهشة والحيرة حين سمع اسمه يتردد على كل لسان وأن المذيعة تقصده هو بالذات، فخرج من بيته يهرول نحوهم وعلى وجهه تساؤلات وسألهم: "خير يابهوات.. حصل إيه، عاوزين مني إيه، أنا الحاج حسين مغاوري".

أجابه معد البرنامج عمرو بابتسامة: "مش عايزين منك حاجة ياحج، احنا عايزين واحد ساكن عندك اسمه... اسمه "سعدون أبو مندور"، فصاح الحاج حسنين: "ليه ماله.. عمل إيه.. عمل حاجه.. منضم للإرهابيين واللا عمل حاجه بطالة؟" فطمأنه عمرو أن المسألة ليس فيها إرهاب ولا

يحزنون... وانبعث من بين الجموع صوت متحشرج خايف يعلن أنه أبو مندور، ويتساءل باضطراب: "عايزين مني إيه..."

التفت الجميع نحو سعدون... وصالح الجميع "هو ده سعدون أبو مندور بعينه"، وساد الوجوم والجميع في انتظار ما تقوله المذيعة أو من معها تفسيرا لهذا الموقف الغامض، ولكن أحدا لم يقل شيئا، وطلبوا من مسعود أن يصحبهم إلى شقته وطلبوا من الناس أن يفسحوا لهم الطريق حتى يتمكنوا من الدخول والتصوير...

فجأة دوت صرخة من المذيعة إنجي وأخذت تبكي وتستغيث من شدة الزحام حولها وبعض الشباب الذي بدأ يتحرش بجسدها الطري شبه العاري... وتدخل بعض أهل الخير واستطاعوا بصعوبة ومشقة أن يفسحوا الطريق للمذيعة ومن معها حتى دخلوا إلى شقة مسعود بالطابق الأرضي بعد أن وقف الحاج مغاوري يمنع الناس من اقتحام البيت.

بقيت الجموع تنتظر أمام الباب والأطفال يتصايحون والنساء لا يتوقفن عن التفكير والتخمين والبحث عن سبب مجئ التلفزيون لمقابلة أبو مندور بالذات.. ذلك الرجل الفقير الذي يعمل فراشا بثلاثمائة جنيه في إحدى المصالح الحكومية ويعيش في هذا الزقاق أربعين عاما لم يزره أحد ولم يزر أحدا.

فلماذا إذن حضرت إليه المذيعة والمصور؟

وتنطلق التخمينات والتعليقات والتفسيرات والدهشة تصاحب كل هذا وهي ترتسم على وجوه الجميع وصبرهم ينفد من طول غياب المذيعة في حجرة مسعود، وهي حجرة لا تشجع أحدا على البقاء بها خاصة هؤلاء البهوات الذي تعودوا حياة الفلل والشقق الفاخرة، وتلك المذيعة الرقيقة

الحسناء التي اختنقت وصرخت وبكت من شدة الزحام حولها، كيف تطيق أن تبقى كل هذا الوقت مع زملائها بحجرة سعدون لخانقة، وفيم يتكلمون، ولماذا جاءوا، ولماذا ذهبوا لمسعود بالذات؟

وحتى هذه اللحظة كان محسن يصور حجرة مسعود وحجرته ومحتوياتها البسيطة المتناثرة في الصالة.

وقبل أن يعرف مسعود شيئا عن سبب حضور الوفد وسؤالهم عنه كان عليه أن يجيب على أسئلة المذيعة الغريبة تدور كلها حول ظروف حياته الخاصة ومرتبه وكيف يدير نفسه ومعيشته ومعيشة أولاده الأربعة... والحقيقة أن مسعود كان خجولا مضطربا وهو يصارح المذيعة إنجي بأن مرتبه لا يزيد عن ثلاثمائة جنيه.. يدفع منها ٥٠ جنيها للحاج مغاوري أجري لسكنه في بيته، و ٥٠ جنيها للأتوبيس الذي يحمله ويعيده من وإلى عمله، ومائة جنيه لعم شلبي البقال ثمنا للصابون والجبن الأبيض والملح وزيت التموين والسكر، وبضع سجائر وربما علبة سردين كبيرة في الشهر... والمائة جنيه الباقية يعطيها لزوجته ليلى لتدبر أمرها به فتشتري العيش منها وتمتعهم يومين أو ثلاثة في الشهر بأكلة كرشة أو لحمة رأس، وتمنح جنيها أحيانا لأطفالها عند ذهابهم للمدرسة. أما الملابس فإن ليلى تعرف كيف تدبر ثمنها مما تحصل عليه مقابل خدمتها في البيوت مرتين أو ثلاثة كل أسبوع.... و "اهه ماشية والحمد لله".

ويتنفس سعدون الصعداء بعد أن ينتهي من إعطاء هذه الصورة السريعة لحياته وظروف معيشته وكاميرا محسن مسلطة على وجهه وتتابع حركاته، ثم يتطلع للمذيعة بابتسامة مصطنعة فيها استجداء وتوسل، ويسألها ماذا تطلب مني بعد كل هذا؟

وتبتسم المذيعة وتقول له: سؤال أخير ياسعدون... كيف كنت تشاهد برنامج مسابقة المليون في رمضان بقناة الأحلام وأنت لا يوجد في بيتك تلفزيون ولا ريسيفر؟... ويدهش سعدون لهذا السؤال ولكنه يجيب قائلا إني شفت بالصدفة أول حلقة في أول يوم من رمضان ولفت نظري جائزتها الضخمة.... وقبل أن يكمل قفز لذهنه خاطر فسأل المذيعة بشغف... ليه بتسأليني السؤال ده بالذات، فتجيبه المذيعة والابتسامة تملأ وجهها: لأنك ياسعدون ربحت الجايزة الأولى وهي مليون جنيه... فتنطلق صرخة من الرجل، وتنكمش زوجته في مكانها جامدة لا تتحرك وعيناها تكادان تخرجان من مكانهما وهي تنظر لزوجها... ويخرج الخبر بسرعة البرق من حجرته فتنطلق الزغاريد عالية تجلجل في الزقاق ويخرج الحاج مغاوري إلى الجيران قبل أن يهجموا على بيته يعلن الخبر إليهم وهو في حالة هيستيرية.. ويتلقف الناس الخبر بشتى الأحاسيس.. بعضهم يذهل.. بعضهم يتجمد.. بعضهم يصرخ: مش معقول.. مش معقول. بعضهن تهتف بذهول: ابن الايه مليون جنيه".. بعض النساء تزغرد بلا وعي.. الأطفال يصرخون ويطيرون في كل اتجاه: "سعدون كسب مليون جنيه، سعدون الفراش الغلبان الفقير.. كسب نص مليون جنيه".

وحين أشرق صباح اليوم التالي ارتدى سعدون كعادته بدلته الصفراء واستعد للخروج بعد أن هدأت نفسه من العاصفة التي انتابتها منذ عصر اليوم السابق ويقول لزوجته بصوت خافت: انسي الموضوع، كل شيء سيقى على حاله حتى نفوق، وإذا كان عندك موعد لتنظيف أحد الشقق فلا تتأخري عنها، كل شيء يجب أن يستمر على حاله... ثم تركها وخرج.

وعلى طول الطريق في زقاق البومي يرى النساء على الأبواب وخلف النوافذ ينادينه باسمه ويتوددن إليه، ويحيينه تحية الصباح، وأطفال يعترضون طريقه بعضهم يطلب خمسين جنيها، وبعضهم يطلب مائة، وبعضهم يتواضع فيطلب عشرة جنيهات فقط...

يستوقفه عم شعبان البقال ويقول له بابتسامة رائعة:... "والله ياسعدون تستاهل كل خير.. صبرت لحد ما ربنا نولك"، فيشكره سعدون... ولكن عم شعبان يستدرجه للحديث ليعرف منه ماذا ينوي أن يفعل بالثروة الهابطة عليه، ثم يعرض عليه أن يشاركه في محل البقالة ليوسعه ويملئه بالبضائع ويصبح سوبر ماركت كبير يدر أرباحا طائلة...

ويمضي سعدون في طريقه فتقابله "زيزي الممرضة" وبعد أن تهيل عليه التهاني تسأله أن يسلفها ٥ آلاف جنيه... ويمر بالجامع الصغير على رأس الحارة يقف عامل الجامع ببابه فيصيح بسعدون: "استعد يا بطل... فرش الجامع السنة دي عليك"... ومع ذلك يمضي... يتخلص من كل هؤلاء البشر بألفاظ مضطربة وعيون زائغة ينظر إليهم بحذر ويخاطبهم بخوف والحيرة والدهشة هي الطابع المسيطر عليه أكثر من أي شيء...".

وفي مديرية الزراعة التي يعمل فيها يكون الخبر قد سبقه إليها... فقد تم إذاعة اللقاء الذي أجرته المذيعة مع إعلان القناة الفضائية اسمه عدة مرات بأنه السعيد الذي ربح نصف مليون جنيه، وفوجئ سعدون باستقبال صاخب ينتظره في المديرية، ليس من زملائه الفراشين فحسب، بل أيضا من الموظفين الكبار والصغار، وحتى مدير الزراعة أرسل يطلبه وتبسم في وجهه لأول مرة وسأله باستجداء: "هتعمل ايه بالمليون ياسعدون".. ويقترب المدير من هدفه ببطئ شديد، ثم تتضح ابتسامة الاستجداء ويتحشرج صوته وهو يقول لسعدون: أنا محتاج ١٠٠ ألف جنيه سلفه، مجرد سلفه... ويطأطئ سعدون رأسه من الحرج ثم يسمع صوت المدير بناديه بأدب: "هيه ياسعدون قلت إيه؟"، ويهم سعدون بالانسحاب وهو يقول أنا تحت أمرك ياباشا، ويكاد يصعق حين رأى المدير يصطحبه حتى باب المكتب ويفتح له ويودعه مبتسما.

حينما خرج من عند المدير التف حوله زملاؤه يسألونه إذا كان سيبخل عليهم أم سيكون كريما، ويقول له عم إبراهيم إن ولدي الكبير مريض وعلاجه يحتاج ١٠٠٠ جنيه على الأقل... ويحضر إليه رئيسه المباشر الذي طالما كان يشخط فيه ويسبه ويظهر عليه سلطانه ورئاسته ويعكس عليه كل مركبات النقص... جاءه رئيسه والابتسامة تملأ وجهه وأخذه بالحظن وقبله، ثم انتهى بطلب ٥٠٠٠ جنيه سلف كي تساعده على جهاز ابنته مرفت، وهذا مبلغ تافه بجانب المليون جنيه التي ربحها في غمضة عين.... والموظفون الصغر يتوددون لسعدون الفراش ويجلسونه إلى جانبهم ويكلمونه بأدب، الكل يسأل عن المليون جنيه، وعيونهم فيها بريق مخيف لا يدري سعدون كيف يتلاشاه.

وتذهب ليلى زوجة سعدون لبيت "نسرين هانم" كي تنظف لها شقتها، ولكن نسرين هي الأخرى كانت قد شاهدتها مع زوجها على الفضائية فتستقبل ليلى بدهشة وتساؤل "جيتي ليه، لسه بتدوري على لقمة العيش، مش كفاية عليكم الثروة الخيالية اللي نزلت عليكم".

وأولاد سعدون عادوا من المدرسة ومع كل منهم عدة "كروت" من المدرسين يعرضون خدماتهم لإعطاء الأولاد دروسا خصوصية لتقويتهم.. مع تنهئة حارة بالثروة الطائلة".

كل شيء تغير.. انقلب رأسا على عقب

وكان على سعدون أن يواجه الموقف، فلم يعد يجدي أن يقول من زوجته يبقى كل شيء على حاله.. أبدا.. مستحيل.. أبدا.. مستحيل، لا يمكن أن يبقى كل شيء على حاله.

حتى الحاج مغاوري، جاءهم يطلب مبلغا ضخما لإصلاح البيت وإنقاذه من الانهيار، وحجته أن بيته هو "وش السعد" عليهم.. وهو يطلب ١٠ آلاف جنيه فقط، وهو نقطة في بحر بالنسبة للمبلغ الذي هبط عليه".... وعشرات الأسئلة التي تلاحقه من جيران يقابلونه في الشارع، هل ستبقى بالزقاق ياسعدون أم ستذهب للبحث عن شقة فخمة في المبتديان أو المنيل، أو "حتطلع فيها قوي" وتسكن في التجمع الخامس أو القاهرة الجديدة...

وشيخ الجامع يقترب منه ناصحا: متفرطش في الخير اللي جالك من ربنا ياسعدون، احفظه لأولادك ومستقبلهم ولكن لا تنس حق الله فيه حتى يبارك لك، يجب أن تتبرع بالعشر على الأقل للجامع... ويسرح سعدون بذهنه لحساب مقدار هذا العشر فيجده مبلغا مخيفا.

وامرأة جاءتهم تحمل طفلا كسيحا تسأل سعدون أن يساعدها في علاج طفلها الوحيد، ورجال يعترضون طريقه يواجهونه بابتسامة، نفس الابتسامة التي رآها مرسومة على وجه المدير وهو يطلب ١٠٠ ألف جنيه.

ظل سعدون جامدا لا يتحرك.. والمبلغ الذي اقترضه أودعه كله للزمن، لأطفاله في نفس البنك الذي صرف منه شيك المليون جنيه، وبقي بالزقاق.. ببيت الحاج مغاوري، وفي كل صباح يقوم من نومه يرتدي بدلته الصفراء ويخرج لعمله، وفي وجهه جمود وتجهم، وقرر أن يجعل أذنا من طين وأخرى من عجين فلا يسمع يناديه أو يسأله ماذا فعل فيما طلب منه، وقذفته امراة "بكيس زبالة" فعاد يغير ملابسه وتأخر عن عمله واستقبله رئيسه بثورة جامحة وبصق في وجهه، وعندما ذهب يشكو لمدير المديرية هدده بطرده من العمل إذا تأخر مرة ثانية، وشمت فيه الموظفون فلم يشفقوا عليه...

عاد إلى بيته بعد الظهر فوجد طفلين من أولاده "مبطوحين" بالطوب من أولاد الحارة، والحاج مغاوري واقف في مدخل باب البيت يمنعه من الدخول ويطلب منه مغادرة البيت فورا وإلا سيلقى بكراكيبه في الشارع، فهم لم يعودوا فقراء حتى يشاركوا الفقراء في بيوتهم، "وكفاية استحملناكم طول السنين اللي فاتت".

واليوم التالي... والذي يليه... كل شيء يزداد من سيء لأسوأ.

زملاؤه لا يطيقونه... رئيسه في العمل يكتب عنه التقارير السوداء والمدير يوقع الجزاءات بلا حساب، والموظفون ينظرون إليه باشمئزاز ويقولون ماذا ينتظر هذا الرجل المغفل وقد أصبح يملك مليون جنيه.. وسكان زقاق البومي وحارة أم المساكين.. كلهم أصبحوا يستقبلونه هو أو زوجته بالألفاظ البذيئة وأطفال الحواري بالطوب والمعاكسات، والحاج مغاوري لا يتوقف عن الصراخ والشتيمة، وأحد المدرسين في المدرسة يضرب ابنه ضربا مبرحا حتى يصيبه بكدمات شديدة، ومدرس يصفع ابنه الثاني، وعم شعبان صاحب البقالة يرفض أن يبيع ليه بالأجل، بل يرفض أن يبيع له أصلا، وشيخ الجامع يتكلم في كل خطب الجمعة عن البخيل الذي يغل يده فيقعد ملوما محسورا...

وكانت ليلة شتوية باردة نام فيها الزقاق كله، ما عدا سعدون، أيقظ زوجته وأولاده، وقال له: تعالي نمشي من هنا، نخرج من البيت والزقاق والحارة كلها، نخرج بالليل حتى لا يزفنا الناس بالطوب والمياه القذرة، لقد أصبحنا غرباء يا ليلى ويجب أن ندور عن مكان تاني نعيش فيه.....".